الفعل الإنساني عند ابن مسكويه

دكتور

محمد أحمد بخيت عبدريه

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية – بنين القاهرة

(١)

المقدمة

إن مسألة الفعل الإنساني تعد من أهم المسائل العقلية التي تباينت فيها الآرء واختلفت فيها المذاهب وتحيرت فيها العقول ووجدت فيها ميدانا فسيحاً للجدل والمناقشة ،وهذه القضية فروعها كثيرة ومفاهيمها مختلفة لما لها من صلات بقضايا كثيرة فهي مشكلة المشاكل وسط المشتغلين بالفكر بوجه عام حيث تتصل اتصالا وثيقا بقضية القضاء والقدر،وهي نفسها تسمي في الفكر الإسلامي باسم مشكلة الجبر والاختيار أو التسيير والتخيير كما تسمي في الفكر المعاصر باسم مشكلة الحرية ومشكلة التكليف ،وفي الناحية الأخلاقية تسمي بالمسئولية والجزاء إلاأنها تسمي عادة في كتب المتكلمين بأفعال العباد ،وفي كتب المعتزلة سماها القاضي عبد الجبار بخلق الأفعال .

وقد تلقي السلف رضوان الله عليهم هذه القضية دون أن يثيروا حولها جدلا أو يبعث أحد في محيطها خلافا انطلاقاً من قول النبي صلي الله عليه وسلم عندما"خرج يوما علي جماعة من أصحابه فرآهم يتجادلون في القدر فغضب حتي احمرت وجنتاه وقال إنما هلك من كان قبلكم لخوضهم في هذا ،عزمت عليكم أن لا تخوضوا فيه أبدا"[١] ولكن الأمر اختلف حين دخل علي التفكيرالإسلامي المذاهب الفلسفية ومعتقدات دينية فإذا جدل عنيف ومعارك صاخبة من معارك الكلام تقع بين المسلمين وتتناول العقيدة وما يتصل بها من قريب أو بعيد وكانت مسألة حرية الإنسان واضطراره من أهم المسائل التي وقع فيها خلاف مذهبي بين المسلمين ثم

---

[١] أخرجه الترمزي في السنن كتاب القدر ٤/ ٤٤٣ عن أبي هريرة

(٢)

تواله عن الخلافات التي نشأت بعد ، وظهر على أثرها الفرق والمذاهب المختلفة من فرق المعتزلة والخوارج والشيعة وغيرها من الفرق ، والذي يعنينا هو أن الخلاف الذي دار حول حرية الإنسان قد لبس ثوباً فلسفياً بين الأطراف المتنازعة في الوقت الذي كان كل طرف يتمسك بآيات الكتاب ويسوقها مساق التأييد لرأيه ولا شك أن هذا قد انتهى في كل ناحية إلى تحميل آيات الكتاب ما لا تحتمل من المعاني التي يوهم ظاهرها التناقض ، كلٌ يتعلق بكتاب الله ويتمسح بآياته ليقيم لرأيه حجة ويقدم لمذهبه سنداً ، ومنشأ الخطورة في هذه القضية أن لها اتصالاً وثيقاً بوحدانية الإله وانفراده بالخلق والإيجاد ، كما لها اتصال بتكاليف العباد وثوابهم وعقابهم .لذلك يجد الباحث فيها نفسه بين عاملين متنازعين فبينما يعتقد انفراد الله بالخلق والإيجاد امتثالاً لقول الله جل شأنه "الله خالق كل شئ"[١] إذ يجد أن العبد مأمور بالطاعات مكلف باجتناب المنهيات،وأنه مثاب على الطاعات معاقب على ارتكاب المعاصى لقوله تعالى"من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد"[٢] وكذلك السنة فإننا نجد فيهاأحاديث كثيرة يوهم ظاهرها التعارض مثل قوله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه "[٣] ومثل قوله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة " خلقت هولاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون،وخلقت هولاء للنار

---

(١) سورة الزمر آية٦٢

(٢) سورة فصلت آية٤٦

(٣) صحيح مسلم شرح النووي ج ١٦ كتاب القدر ص ١٠٩ المطبعة المصرية.

وبأعمال أهل النار يعملون"[١] فإن الحديث الأول يدل على أن سبب الكفر إنما هو المنشأ عليه وأن الايمان هو الفطرة التى فطر الناس عليها،والثانى يدل على أن أعمال الطاعة والمعصية هما مخلوقان لله تعالي، وأن العبد مجبور عليها ، كذلك هناك سبب أخر للاختلاف سوي السمع وهو تعارض الأدلة العقلية.

ومن هنا نرى منشأ الخلاف بين المذاهب يدور على أمرين:-

أولهما : تعارض الأدلة السمعية من الكتاب والسنة في ظاهرها.

ثانيها : تعارض الأدلة العقلية .

لذلك اختلفت أراء علماء الكلام في أفعال العباد فمنهم من قال :إن الإنسان خالق لأفعاله الاختيارية ليوافق بذلك التكاليف ولوازمها من الثواب والعقاب .

ومنهم من قال : إن الإنسان مجبور ليوافق بذلك المبدأ العام من انفراد الله تعالى بالخلق والإيجاد ، ومنهم من قال إن للإنسان كسبا واختيارا ومنهم من قال غير ذلك ، وإن اتفقت كلمتهم جميعا على أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه الخالق المستقل الذى يستحق العبودية . كما اتفقت كلمتهم على أن الله خالق للذوات وأفعال العباد الاضطرارية،والخلاف إنما هو فى الفعل الإنسانى الاختيارى ،ومن هنا نستطيع أن نقول إن بين هذه المذاهب اتفاق واختلاف .

فمحل الاتفاق:حيث يرى جميع العلماء أن الأفعال الاضطرارية مخلوقة لله تعالى ولا دخل للإنسان فيها مثل حركة القلب وانتفاضة المحموم.

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦

أما محل الخلاف فيتمثل في الأفعال الاختيارية مثل القيام والقعود وحركة الماشي وغير ذلك،ومن هنا فلم تعرف معارك متكلمي الإسلام معركة أعنف من هذه المعركة ولهذا حظيت مسألة الفعل الإنساني بكثير من الدراسات والأبحاث،غير أن معظم هذه الأبحاث موجهة لدراسة رأي المتكلمين في الفعل الإنساني،أما الأخلاقيون والفلاسفة فلم توجه أبحاث ودراسات لمعرفة رأيهم في الفعل الإنساني علي وجه التحديد بمثل ما وجه إلي المتكلمين .

لذلك أردت أن أفرد هذا البحث لإبراز رأي واحد من أهم المفكرين الأخلاقيين الإسلاميين في الفعل الإنساني وهو الفيلسوف الأخلاقي ابن مسكويه راجيا من الله تعالي التوفيق والسداد .

دكتور/محمد أحمد بخيت عبدربه

الفصل الاول

الإنسان فى فكر ابن مسكويه

المبحث الأول: التعريف بابن مسكويه

أ- اسمه ولقبه :

هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب (بمسكويه) [١] ولكن اختلف فى لقبه فيرى بعض العلماء أنه هو (مسكويه) فقط بدون لفظ (ابن) ويرى بعضهم أنه (ابن مسكويه) ولكن الذين يقولون أن لقبه (ابن مسكويه) قليلون مثل الخوانسارى فى كتابه (روضات الجنات)[٢] والبيهقى فى كتابه(تاريخ حكماء الإسلام)[٣] والشهروزى فى كتابه(نزهة الأرواح)[٤] فى حين أن الأكثرية من المترجمين له يرون أن لقبه (مسكويه) بدون لفظ (ابن) ومن أهم هولاء المترجمين والعلماءالخوارزمى فى كتابه (رسائل الخوارزمى) وأبو حيان التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) والقفطى فى كتابه (أخبار العلماء والحكماء)[٥] وغيرهم ، ومن ثم يمكن القول بأن معظم المترجمين له يرون أن لقبه (مسكويه) بدون لفظ (ابن) وبهذا يكون اسمه أحمد مسكويه بن محمد بن يعقوب ولعل هذا هو الراجح ويرى البعض أن هذا اللقب مشتق من المسك وهو العطر المعروف (وذلك

---

(١) أعلام الفكر اللإنسانى د/إبراهيم مدكور ـ الهيئة المصرية للكتاب بمصر
(٢) روضات الجنات ـ محمد باقرموسى ـ مطبعة طهران
(٣) تاريخ حكماء الإسلام ـ البيهقى المجمع العلمى بدمشق
(٤) نزهة الأرواح للشهروزى
(٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء- جمال الدين القفطى مكتبة السعادة ١٩٣٦

لأنه كان محبا له)[١] وأما كنيته فهو أبو على والكنية تطلق عادة للتعظيم من شأن الرجل [٢] ويذكر أن اختيار هذه الكنية يتفق وما لمسكويه من التشيع لعلى رضى الله عنه ويرى أن ذلك شرف له وأى شرف أعظم من الانتساب إلى الإمام علي رضي الله عنه.

ب ـ مولده :

ولد ابن مسكويه بالرى وهى مدينة فارسية مشهورة ظهر فيها كثير من نبغاء المفكرين سنة ٣٢٥ هـ على الأرجح يدل على ذلك قوله:{إن كان ما رويته فى تاريخى ويعنى به تجارب الأمم بعد سنة ٣٤٠هـ فهو من مشاهدة وعيان أو خبرة محصل يجرى عندى مجرى ماعاينته}[٣]

ويقول مقدم التهذيب (هذا يعني أنه كان في سنة ٣٤٠هـ في حدود الخامسة عشرة من عمره إذ المألوف والواقع في الشخص السوي في مثل هذا العمر يتمكن من استيعاب أحداث حياته واستقرائها واستنتاج العظات والعبرمنها حيث إن سن الخامسة عشر سن يكفي للفهم والتمييز وإدراك الخطأ والصواب وعلى وجه الخصوص إذا كان ذلك العمر لرجل ذي عقل راجح كمسكويه وهذا قول من عاصره وعايشه[٤] .

حـ ـ حياته ونشأته :

من خلال المصادر التي تكلمت عن ابن مسكويه يمكن القول بأن حياته تكاد

---

(١) ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيزعزت ص٨١ بتصرف مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر
(٢) المصدر السابق ص ٨٣
(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه تقديم حسن تميم صـ ٧ مكتبة الحياة بيروت ط ٢ بدون
(٤)ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت صـ٧٩ بتصرف حقيقي.

تكون غامضة وذلك لعدم وجود مصادر تخبرنا بذلك ويؤيد هذا ما جاء في مقدمة كتابه (تهذيب الأخلاق) (أما عن حياته في مرحلة الطفولة والشباب فتكاد تكون مقطوعة عنا لا نعرف شيئا عنها)[١] وما جاء أيضا في دائرة المعارف الإسلامية (نحن لا نعرف عن حياة ابن مسكويه إلا القليل)[٢] وقد اتهم ابن مسكويه بأنه كان مجوسياً ثم اعتنق الإسلام وقد جاء ذلك في كتاب معجم الأدباء ووافقه في ذلك صاحب كتاب (تاريخ الأدباء العربية)[٣].

ولذلك فإننا نرى أن عدم معرفة بعض العلماء بنشأته وحياته قد أتاح الفرصة لبعض المؤرخين أن يتهمه بالمجوسية وربما يكون هذا الاتهام قد حصل لبعضهم لعدم التحري عن سيرته وحياته ، وإن كنت أرى أنه ليس عيباً ولا بعيداً أن يكون الرجل مجوسياً ثم يعتنق الإسلام ويبلى فيه بلاءً حسناً لكنني أقول إن من يطالع مؤلفات ابن مسكويه ويرى نبوغه في العلوم الإسلامية يقطع بعدم جواز ذلك عليه وأنه لا يجوز لرجل قريب عهد بالإسلام مثل ابن مسكويه من حيث فهمه للإسلام ونبوغه فيه ، ولو نظرنا إلى مؤلفاته وعلى الخصوص في مذهبه الأخلاقي لأدركنا أنه لم يكن مجوسياً ووضح لنا أنه نشأ مسلماً وعاش في بيئة إسلامية صادقة ، وأما هذه التهمة التي وجهت إليه فلعلها كانت لجده وليست له

---

(١) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه تقديم حسن تميم صـ ٧ بتصرف.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مراجعة د/مهدي علام.
(٣) انظر معجم الأدباء – ياقوت الحموي جـ٥ صـ ١٠ سلسلة الموسوعات العربية ط دار المأمون وتاريخ الآداب العربية – جورجي زيدان.

ويؤيد هذا ما قاله الدكتور (محمد يوسف موسى) :(لعل الصحيح أن جده هو الذي انتقل من المجوسية إلى الإسلام)[١] ويؤيد ذلك أنه لو كان مجوسيا لذكره المعاصرون له فإن مثل هذا الأمر لايستهان به حتى لا يتحدثون فيه.

أما عن حياته الخاصة فمن خلال دراستنا لمنهج ابن مسكويه يمكن القول بأنه كان في شبابه يحيا حياة كلها استهتار سعى فيها وراء الشهوات وإشباع حاجات البدن من الملذات والمسرات وقد خرج عن حد الاعتدال في هذا الشأن فقد بالغ في الإقبال على المأكل إلى حد الشره، والترف في الملبس وأفرط في اتخاذ المراكب الفخمة والزينة البانخة، وأهمل تثقيف نفسه بالمعقولات والفلسفة ولم يقبل عليها إلا في رجولته وإنما شغل نفسه في شبابه خاصة بالكيمياء وخلط المواد وغير ذلك من الأمور العملية التي تهم حياته وحياة من اتصل بهم من الأمراء والوزراء، وكان يقرأ الأدب الفاحش الذي يصف حركات الجسم ويعبر عن أقبح المعاني [٢] ويذكر الدكتور عبد العزيز عزت تعليلا لهذا الاستهتار وعدم المبالاة فيقول: (لعل وظيفة المنادمة التي شغلها ابن مسكويه في شبابه هي التي دعته إلى الاتجاه في الطريق المعوج فالشيوخ من الرؤساء كانوا يعجبون برواية الشعر الخليع كما يقول ابن مسكويه ويجذلون لندمانهم العطاء الذي يحثهم على الاستطراد في حياة اللذات وكان أيضا يجد في تلك المجالس

---

(١) فلسفة الأخلاق في الإسلام د/ محمد يوسف موسى صـ ٧٤ جـ ٣ سنة ١٩٦٣م.

(٢) ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها صـ ١١٣.

رفاقاً يشجعونه ويساهمون معه في هذه الحياة [١] وقد تحدث ابن مسكويه عن حياته الخاصة وعاب على نشأته حيث لم تتوفر له التربية السليمة فقال : (ومن لم يتفق له ذلك أي التربية الصالحة في مبدأ نشونه ثم ابتلي بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات كما يوجد في شعر (امرئ القيس والنابغة) وأشباههما ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها ويجذلون له العطية ، وامتحن بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية ، ومال طبعه إلى الاستكثار من المطاعم والملابس والمراكب والزينة وارتياط الخيل..... كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الأوقات ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي أهل لها فليعد ذلك شقاء له لا نعيماً وخسراناً لا ربحاً ، ثم ينصح بأن الإنسان عليه أن يربي نفسه على الفضيلة ولو بالتدريب والمران فيقول : (وليجتهد على التدرج إلى فطام نفسه ويوضح أن رجوع الإنسان عن التمادي في الخطأ والترف والمجون خير من التمادي والاستمرار على هذا الباطل الوخيم العاقبة)[٢].

وقد اجتاز ابن مسكويه هذه المرحلة الحافلة من عمره وتوقف عن متابعة السير في نفس الاتجاه ووفق في محاسبة ذاته ، ومراجعة حساباته، واستطاع أن يفطم نفسه عما اعتاده من اللذات الفانية ولم يكن ذلك من اليسير عليه حيث يقول (وما أصعب ذلك على النفس في ترك ما اعتادت

---

(١) المرجع السابق صـ ١١٣.

(٢) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه تقديم حسن تميم صـ ٨.

عليه ، ولكن على كل حال فإن ذلك خير من التمادي في الباطل .. ويقول تدرجت في فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهاداً عظيماً ورضيت لك أيها الفاحص(أي الباحث)عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي بل تجاوزت لك في النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري لتدركه ودللتك على طريق النجاة قبل أن تنتهي في مفاوز الضلالة وقدمت لك السفينة قبل أن تهلك في بحر المهالك)[١]. تلك هي حياة ابن مسكويه الخاصة التي بينها وتكلم عنها بنفسه ، انغماس تام في الشهوات والملذات ثم توبة وندم وعود إلى الطريق الصحيح ولم تكن هذه الحياة قاصرة على مسكويه فقط ولكن حال الشباب الذين تربوا على الترف والنعيم خاصة في مثل هذه الأيام التي شاع فيها التقليد الأعمي للغرب وقد يتجاوزون ذلك على مر سنين حياتهم في اللهو واللعب، ولكن ابن مسكويه بعقله الناضج بعد أن اجتاز هذه المرحلة من شبابه عاد وحاسب نفسه ورجع إلى صوابه بل ونصح غيره نصيحة صادقة تدل على حسن توبته ومحبته للناس جميعاً وهذا يوافق قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [٢] واعتبر ذلك تكفيراً لما كان منه في شبابه وأخذ في تصنيف

---

(١) المنهج الأخلاقي بين الإمام الغزالي وابن مسكويه ـ د/أحمد بخيت عبدربه صـ ١٦٣ رسالة ماجستير- كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين القاهرة ١٩٩٤ وابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها صـ ١١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه جـ ١ صـ ٥٦:٥٧ عن أنس ابن مالك رضي الله عنه.

المصنفات خاصة في مجال الأخلاق لكي تكون منها ما يسير عليه المسلم ويهتدي به حتى ينال السعادة في الدنيا والآخرة.

د- أثار ابن مسكويه العلمية :

كان ابن مسكويه رحمه الله رجل علم وفكر وعمل ولا أدل على ذلك من كثرة مؤلفاته العلمية التي تعد ثروة فكرية هائلة ، غير أن هذه المؤلفات منها ما هو موجود ومنها ما هو مفقود ، والموجود منها منه ما هو مخطوط ومنه ما هو مطبوع ، وسأذكر بعض ذلك على سبيل الإيجاز والإشارة .

١- المخطوط من مؤلفاته :

أ- رسالة في اللذات والألام وهي تقع في ست صفحات من القطع المتوسطة.

ب- رسالة في الطبيعة وهي رسالة قصيرة تبلغ الصفحة الواحدة في مجملها.

جـ- رسالة في جوهر النفس والبحث عنها وهي رسالة قصيرة أيضاً تقع في صفحتين.

د- رسالة من (كتاب العقل والمعقول – وهي رسالة ضمن مجموعة راغب باشا باستانبول وحجمها ست عشرة صفحة).

هـ- مقالة في النفس والعقل وهي عبارة عن جواب مسائل في صفحة واحدة.

و- مقالة في إثبات الصور الروحانية التي لا هيولي لها ومكونة

من ثلاث صفحات .

ز- رسالة في جواب على سؤال في حقيقة العدل.

ح- وصية ابن مسكويه لطالب الحكمة .

ط- مجموعة رسائل تحتوي على حكم فلاسفة الشرق واليونان.

هذه معظم المؤلفات المخطوطة لابن مسكويه التي ذكرها مقدم كتاب (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) وصاحب كتاب (ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها[١]

٢- المطبوع من مؤلفاته منها :

أ- كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، وهو كتاب مشهور ومتداول في أيدي الناس قديماً وحديثاً.

ب- كتاب الفوز الأصغر.

جـ كتاب السعادة ويسمى أحياناً ترتيب السعادة.

د- كتاب تجارب الأمم وهو كتاب في التاريخ.

هـ وصية ابن مسكويه وهي عبارة عن دستوره الأخلاقي الذي يعبرعن نظرياته الموجودة في كتبه[٢].

هذه المصنفات المطبوعة التي تدل على ما كان للرجل من علم واسع في مختلف العلوم، وهناك الكثير من مؤلفاته التي لم يكتب لها البقاء وأخبرنا عنها بعض المؤرخين والمعاصرين له ومنها:

---

(١) انظر المنهج الأخلاقي بين الإمام الغزالي وابن مسكويه ـ د/أحمد بخيت عبدربه صـ ١٦٥:١٦٨ بتصرف واختصار

(٢) المصدر السابق صـ ١٧١ بتصرف.

(١٣)

أ- كتاب أنس الفريد أو أنس الخواطر.

ب- كتاب الأدوية المفردة.

جـ كتاب الفوز الأكبر.

د- كتاب الجامع وهو كتاب في الطب.

هـ كتاب السيرة.

و- كتاب سياسة الملك.

ز- كتاب أدب الدنيا والدين.

ح- كتاب حقاق النفوس.

ط- كتاب نور السعادة أو فوز السعادة[١].

وغيرها الكثير والكثيرالتي كانت تعبرعن ثقافة الرجل وعلمه رحمه الله.

وفاته :

توفى أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه بعد حياة حافلة بالعلوم والمعارف بأصبهان في التاسع من صفر سنة أربعمائة وإحدى وعشرين هجرية بعد أن بلغ السادسة والتسعين من العمر ودفن في محلة حاجو بأصبهان رحمه الله[٢].

---

(١) المصدر السابق صـ ١٧٣.

(٢)المصدر السابق صـ ١٧٨.

المبحث الثاني

الإنسان عند ابن مسكويه

اهتم ابن مسكويه بالإنسان اهتماماً بالغاً، باعتبار أنه يمثل جوهر الوجود الكوني ، فأخذ يبحث عن مكانته بين سائر الموجودات، وعن صفاته الخاصة به ، وأفعاله التي تميزه عن غيره فنظر أولاً إلى موجودات العالم فوجد أنها ذات مراتب مختلفة ، وإن كل مرتبة متصلة ببعضها البعض اتصالاً وثيقاً وإن حكمة الله تعالى سارية في جميعها[١] تقوم بإعطاء (كل مرتبة قسطها ووقتها قدر استحقاقها بالميزان العدل)[٢] وإن آخر كل نوع من هذه الموجودات متصل بأول نوع منها فيصير هذا الاتصال الذي نشأ من قبل الواحد الحق (كالسلك الواحد الذي ينظم خرزاً كثيراً على تأليف صحيح حتى جاء من الجميع عقد واحد)[٣].

ومن خلال هذا الاتساق والاتفاق والانسجام الذي وجده ابن مسكويه بين موجودات العالم استطاع أن يحدد (مركز الإنسان بين سائر الكائنات الاخرى التي يراها تتسلسل في ترتيب تصاعدي من أسفل إلى أعلى ، فالإنسان فيه ما يشركه مع غيره من الكائنات الخسيسة، وفيه ما يميزه عنها ويرقيه ، وما يصله بما هو فوقه من الكائنات اللطيفة ،وإن كانت هي

---

(١) الفوز الأصغر – ابن مسكويه ـص٧٦ بتصرف ط السعادة مصر ١٣٢٥ هـ وانظر الفعل الإنساني بين المتكلمين والأخلاقيين والفلاسفة ص ٢٧٧ بتصرف

(٢) الفوز الأصغر – ابن مسكويه ص٧٧

(٣) المصدر السابق صـ ٧٨

أسمى منه في درجة وجودها)[١] فابن مسكويه يعتبر الإنسان أشرف موجود في العالم ومع ذلك يبين أنه مركب من شئ قد ينحدر به إلى الدركات الوضيعة في العالم وفيه أيضاً ما يؤهله إلى الصعود إلى من هو أعلى منه ، فهو لا يخرج الإنسان من بشريته ومن فطرته التي فطره الله عليها فالإنسان عند ابن مسكويه يحتل أرقى مرتبة في العالم السفلى الذي نعيش فيه ، حيث تبدأ مرتبته الإنسانية من نهاية أرقى مرتبة في الحيوانية ، وهذه المرتبة الإنسانية مراتب تبدأ واضحة بالطفولة – التي هي أقل مراتب الإنسانية آخذة في الترقي ، فيرتقي بقوته الناطقة حتى (يستقيم النظر وصحة الفكر وجودة الحكم على الأمور الكائنة والأخبار والأحوال المستقبلية حتى يقال فلان ألمعي ... وكأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق)[٢] .

ثم ينظر ابن مسكويه إلى الإنسان من الناحية الخلقية التي كونه الله عليها ويبين أنه كغيره من الكائنات الحية ، فهو حي يأكل ويشرب ويتغذى ويجري في دمائه أنماط الحياة كما يجري في أمثاله ، ثم إن الإنسان من هذه الناحية يشارك الحيوان من حيث مجئ الأمور الإحيائية عليه بشكل لا إرادي كضغط الدم والتنفس وحركة العقل وأمثال ذلك مما هو معروف عند علماء الطبيعة فيقول ابن مسكويه (ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلها هو الذي يلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية وجب ألا ننظر في هذا الوقت في قواه وملكاته وأفعاله التي بها يشارك سائر الموجودات

---

(١) ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها ص ٢٢١

(٢) الفوز الأصغر ص ٨٣

إذ كان ذلك من صناعة أخرى وعلم آخر يسمى العلم الطبيعي)[١] من خلال ما سبق يتبين لنا أن ابن مسكويه يفرق بين الأمور الإحيائية التي بها تكون الحياة الضرورية الطبيعية للإنسان ويبين أموراً أخرى يبحث فيها عن الخلق المحمود والأفعال المرضية فهو يؤمن أن للإنسان أفعالاً وقوى كما أن له أيضاً ملكات تميزه عن غيره ممن يشاركونه الحيوانية وبها تتحقق إنسانيته وهي الأمور التي تصدر منه على جهة الإرادة الحرة مع التفكير المنظم والتمييز، وهو من هذه الناحية محل دراسة وعناية الفلسفة العلمية[٢] يقول ابن مسكويه(وأما أفعاله و قواه وملكاته التي يختص بها من حيث هو إنسان وبها تتم إنسانيته وفضائله فهي الأمور الإرادية التي بها قوة الفكر والتمييز والنظر فيها يسمى الفلسفة العلمية)[٣] من خلال ما تقدم يتضح لنا أن ابن مسكويه يؤكد على أن الجوهر الإنساني جوهر متميز متفضل عن بقية جواهر الموجودات الأخرى الموجودة في العالم ، ولذا وجبت العناية به وبأفعاله التي فضل بها على غيره ، هذا فضلاً عن أنها هي التي تضعه موضع المسائلة ، وبيان ذلك أن أفعال الإنسان على كثرتها وتنوعها لا يرفعه منها ويفضله على غيره إلا ما كان خاصاً به، كالعلوم والمعارف وسائر الأفعال الحسنة التي تحصل له عن طريق الفكر والتمييز فهو إن قام على تحصيلها والتزم

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق-ابن مسكويه ص١٩

(٢)هي التي تسمى بالفلسفة النظرية ، وهي التي تتعلق بالأمور التي لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعمل بها.

(٣) تهذيب الأخلاق- ابن مسكويه ص١٩.

بها يكون قد سلك سلوكاً حسناً يستحق عليه المحمدة والثواب وإن هو أهمل في تحصيلها وقام بالتزام غيرها يكون قد سلك سلوكاً سيئاً يستحق عليه المذمة والعقاب.

المبحث الثالث

قوى النفس عند ابن مسكويه

تمهيد

من خلال دراستنا لمنهج ا بن مسكويه للفعل الإنساني نرى أنه بنى منهجه الأخلاقي على معرفة النفس الإنسانية وبين الغرض الذي من أجله وضع هذا المنهج فيقول الغرض من هذا المنهج (أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب)[1] يفهم من هذا أن ابن مسكويه أراد أن يكون غرضه من وضع هذا المنهج تحصيل الأفعال الطيبة. وبين أن هذه الأفعال لا تستحق أن يطلق عليها لفظ الجميلة إلا إذا كانت سهلة على النفس بدون تكلف ولا كثير مشقة . وأن يكون ذلك على نظام وترتيب محكم.

ثم نراه يبين لنا طريق الحصول على هذا الخلق الجميل الذي من شأنه أن تنشأ عنه الفضائل فيقول (والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي ؟ وأي شئ هي؟ ولأي شئ أوجدت؟ أعني كمالها وغايتها ، وما قواها

(١) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص٢٧

وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العالية)[١] ومن ثم نلاحظ أن ابن مسكويه أراد أن يبين لنا أن منهجه الأخلاقي يقوم على معرفة النفس الإنسانية وماهية الإنسان وقوى النفس الإنسانية وما ينشأ من صلاح أو فساد هذه القوى.

ماهية الإنسان عند ابن مسكويه

يرى ابن مسكويه أن الإنسان يتركب من شيئين لا غنى لأحدهما عن الأخر:

جسم محسوس ومرئي يدرك بالبصر.

ونفس معقولة وغير مرئية حالة في جسم الإنسان لا تدرك بالبصر إلا أنها مغايرة تمام المغايرة للجسم الحالة فيه ولذا فهو يقول (إنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاد أفعال الأجسام وأجزاء الأجسام بحده وخواصه وله أيضاً تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الأحوال. وكذلك نجده يباين الأغراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي: من حيث كانت الأجسام أجساماً والأعراض أعراضاً .

حكمنا بأن هذا الشئ ليس بجسم ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً . وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير وكذلك فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا نقص)[٢]

---

(١) المرجع السابق نفسه ونفس الصفحة

(٢) تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص٢٩

(١٩)

من هذا النص نلاحظ أن هدف ابن مسكويه هو التفرقة بين الجسم والنفس ويمكن القول بأن الجسم غير النفس من حيث أن الجسم قابل للوصف إذ يوصف مثلاً بالطول والعرض وكونه أبيض أو أسمر وكونه يوجد ويعدم فيجري عليه الموت والفناء ، أما النفس فإنها جوهر لا توصف بكونها بيضاء أو سوداء أو طويلة و عريضة وأنها لا تموت ولا تفنى بفناء الجسم.

وكذلك فإن النفس ليست بعرض . وذلك لأن الأعراض لا تقوم بنفسها بل يقوم غيرها بها بمعنى أنها لا بد لها من جوهر تقوم به أما النفس فإنها تقوم بذاتها لأنها جوهر لا يجوز عليها التغيير والتبديل ولا الفناء بفناء الجسم.

ولعل ابن مسكويه قد تأثر بغيره من فلاسفة اليونان فى قوله بأن الإنسان مركب من جسم ونفس حالة فى الجسم ولعله تأثر بقوله هذا بما نقله عن أرسطو الذى يقول بأن الانسان مركب من عنصرين الجسم والنفس وأن فى الجسم قابلية للحياة ولكن لايحس بالفعل إلا إذا أحلت فيه النفس فحركته ودفعته إلى قضاء مآربها)[1] .

أما قوله بأن النفس غير الجسم وأن الإنسان يتركب من جسم محسوس مرئي ونفس غير محسوسة بل معقولة غير مرئية هذا القول موافق لما

---

(١) تاريخ الفلاسفة ص ١٤٠ تأليف محمد على مصطفى وأحمد عبده خير الله ط الأولى ١٩٣٣ م

جاء به القرآن الكريم. قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)[١]. وقد حدثنا القرآن الكريم أن الأرواح لا تفنى ولا تموت بموت الجسم وأخبرنا بأن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون قال تعالي (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٢]

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحياة لأرواح الشهداء بأن أرواح الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة في أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح وتسبح في أي الجنة حيث شاءت فعن مسروق قال سألنا عبدالله عن أرواح الشهداء ولولا عبدالله لم يحدثنا أحد قال: (أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في أي الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها يشرف عليهم ربهم فيقول ألكم حاجة تريدون شيئاً فيقولون لا إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى)[٣]

من هذا الحديث يتبين أن النفس أو الروح مخالفة للجسم. وأن النفس تبقى بعد فناء الجسم ولا تموت.

---

(١) الآية رقم ٧،٨ سورة الشمس.

(٢) الآية رقم ١٦٩،١٧٠ آل عمران

(٣) مسند الدرامي ـ باب أرواح الشهداء حـ ٢ صـ ٢٠٦ دار إحياء السنة النبوية.

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من نفس تموت فتدخل الجنة فتود أنها رجعت إليكم ولها الدنيا وما فيها إلا شهيد فإنه ود أنه قتل كذا وكذا مرة لما رأى من الثواب)[١]

من هذا الحديث نلاحظ أن أرواح الشهداء باقية وأن الشهيد يتمنى لو عاد إلى الدنيا مرة بعد مرة ليقتل في سبيل الله وذلك لما ينعم به في الدار الآخرة. وأخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أن أرواح المؤمنين وعلى الخصوص أرواح الشهداء تسبح في الجنة وتأكل وتشرب وتنعم فعن ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق بشجر الجنة حتى يرجعها الله تعالى إلى جسده يوم يبعثه الله)[٢] ويقول صلى الله عليه وسلم (أرواح الشهداء في طير خضر تعلق حيث شاءت)[٣]

مما سبق يتبين أن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أخبر أن أرواح المؤمنين والشهداء تنعم في الجنة وأنها لا تفنى بفناء الجسد وكما أنها تنعم فإن أرواح الكافرين تعذب. وأخبر الله تعالى عن ذلك فحدثنا عن أرواح قوم فرعون وبين أ نها تعرض على النار في الغداة وفي العشي ذلك قبل يوم القيامة فقال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلو آل فرعون أشد العذاب)[٤]

---

(١) مسند الدارمي باب ما يتمنى الشهيد من الرجعة إلى الدنيا حـ٢ ص ٢٠٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند حـ ٣ ص ٤٥٥ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

(٣) المعجم الكبير – الطبراني حـ ص ٦٦ حديث رقم ١٢٥ بتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي

(٤) الآية رقم ٤٦ سورة غافر

بعد أن ذكرت أن النفس مخالفة للجسم وأنها تنعم أوتعذب وهذا يعني أنها لا تموت ولا تفنى بفناء الجسم.يتبادر إلى الذهن سؤال هو إذا كانت النفس مخالفة للجسم فهل هي جوهر أو مادة ؟ وفي الإجابة على هذا التساؤل يمكن القول بأن النفس جوهر لكونها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرض يقول ابن مسكويه (وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله هو قابل أبداً حامل أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض فإذن النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضا)[١]

ومن ثم يمكن أن نقول إذا كانت نفس الإنسان ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرض ـ فما هو الإنسان؟ يقول ابن مسكويه إن الإنسان (هو حالة من بين سائر الموجودات فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية فكل ما كان تميزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل في إنسانيته)[٢]

قوى النفس عند ابن مسكويه

يرى ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها قوى ثلاث هي:

١ـ (القوة التي بها يكون الفكر والتمييز والنظر في حقائق الأمور.

٢ـ القوة التي بها يكون الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع وضرب الكرامات.

---

(١)تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص٣٠

(٢)المرجع السابق نفسه ص ٣٥ ص٣٧

٣- القوة التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وشروب اللذات الحسية. وهذه القوى الثلاث متباينة"[١]

من هذا يفهم أن ابن مسكويه يرى أن النفس الإنسانية لها قوى ثلاث مختلفة وأن كل قوة من هذه القوى هي التي تنشأ عنها الفضائل أو الرذائل فإذا صلحت هذه القوى واعتدلت نشأت عنها الفضيلة وإذا فسدت نشأت عنها الرذيلة . ويقول صاحب كتاب أفلاطون(إن للنفس البشرية قوى ثلاث الأولى شريرة منحطة وهي القوى الشهوية التي تصدر عنها الأفعال التي تتصف باللذة أو الألم وهذه القوة مقرها البطن والثانية قوة السيطرة ومحاولة السيادة والرئاسة على الآخرين وهذه القوة هي القوة الغضبية ومحل هذه القوة الصدر أي القلب. والقوة الثالثة وهي القوة العليا وهي أرقى هذه القوى مرتبة. وهذه القوى الثلاث هي مصدر العلم وتسمى بالقوة العاقلة ومحلها الدماغ)[٢]

مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه قد تأثر في تقسيمه في قوى النفس بالفلاسفة اليونانيين حيث إن (أفلاطون) قال بهذا من قبله كذلك نلاحظ أن ابن مسكويه في تقسيمه السابق لقوى النفس قد وافق الشريعة الإسلامية في وصفها للنفس بثلاث صفات هي.

النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة.

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص٣٧

(٢) أفلاطون- عبد الرحمن بدوي ص٢٠٥بتصرف مكتبة النهضة المصرية ط الرابعة ١٩٦٤

فنجد القرآن الكريم يحدثنا بذلك فيقول تعالى (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء)[١] ويقول تعالى(لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة)[٢]

ويقول تعالى(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)[٣]

فهذه الأيات الكريمة تدل على أن النفس الإنسانية لها أحوال ثلاث فقد تكون أمارة بالسوء ، وتارة تكون لوامة ، وتارة تكون مطمئنة وهذا باعتبار الفعل الصادر عنها فإذا كانت مداومة على فعل الطاعات فهي المطمئنة وإن كانت مداومة على فعل المعاصى فإنها تكون أمارة، وإن كانت لا تسير على حال واحد فهي اللوامة. ويقول ابن القيم (إن النفس اللوامة هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه. فهذا اللوم من الإيمان وذلك بخلاف الشقي العاصي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته)[٤]

---

(١) الآية رقم ٥٣ سورة يوسف

(٢) الآية رقم ٢،١ سورة القيامة

(٣) الآية رقم ٢٨،٢٧سورة الفجر

(٤)الروح- لابن القيم ص ٢٢٥ مكتبة المتنبي بدون رقم الطبع وتاريخه

(٢٥)

الفضائل والرذائل التي تنشأ من قوى النفس :

إن مسكويه أسس منهجه الأخلاقي على النفس البشرية وجعل بصلاح قوى هذه النفس تكون الفضائل وبفسادها تكون الرذائل فنراه يقول (القوة الناطقة- هي التي تسمى الملكية وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ. والقوة الشهوية- هي التي تسمى بالبهيمية وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد . والقوة الغضبية هي التي تسمى بالسبعية وآلتها التى تستعملها من البدن القلب فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى وكذلك أضدادها التي هي رذائل ثم يقول فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة لا المظنونة معارف حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة ـ ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبية عليها في ما تسقطه لها ولا منهمكة في اتباع هواها. حدثت عنها فضيلة العفة وتتبعها (فضيلة السخاء) ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة تطيع النفس العاقلة في ما تسقطه لها فلا تهيج في غير حينها ولا تحملها أكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم وتتبعها فضيلة الشجاعة ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض فضيلة ـ هي كمالها وتمامها وهي فضيلة (العدالة) فلذلك أجمع الحكماء أن أجناس الفضائل أربعة هي- الحكمة، العفة، الشجاعة، والعدالة ثم يقول ومن أجل ذلك لا يفتخر أحد ولا يتباهى إلا بهذه الفضائل فقط وذكر ابن مسكويه أن أضداد هذه الفضائل الأربع أربع أيضا هي ـ الجهل ، والشره،

والجبن ، والجور . وتحت كل واحدة من هذه الأجناس أنواع كثيرة)[١] مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه ذكر لنا أصول وأمهات الفضائل التي تنشأ من اعتدال قوى النفس وكذلك الرذائل التي تنشأ من فساد قوى النفس والتي بها يكون الإنسان سعيداً أو تعيساً .

ومن ثم فإني أبدأ الحديث بقوى النفس وبيان ما يترتب على صلاحها أو فسادها .

أولاً: القوة العاقلة (الناطقة)

إن ابن مسكويه يضع هذه القوة في مقدمة القوى لأنها أعلى قوى الإنسان رتبة وبها تكون منزلته بين الناس فهذه القوة هي المسيطرة على باقي قوى النفس الأخرى ويقول صاحب كتاب ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها (إن قيمة الإنسان تكون بالنفس الناطقة فهي أشرف النفوس ولها السيادة على النفسين الأخريين ومعناها انحطاط الإنسان عن مستواه الطبيعي وهو أن الإنسان في نظر ابن مسكويه حر" في أن يضع نفسه في أي مرتبة من المراتب الثلاث فهذا موكول إلى إرادته واختيار مصيره ومصير الإنسان في يد نفسه)[٢] ويقول ابن مسكويه (إذا كانت القوى ثلاث كما قلنا مراراً فادونها النفس البهيمية وأوسطها النفس السبعية وأشرفها النفس الناطقة والإنسان إنما صار إنساناً بأفضل هذه النفوس أعني الناطقة وبها شارك الملائكة وباين بها البهائم ـ فأشرف الناس من

---

(١)تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ٣٧،٣٨،٣٩ بتصرف

(٢) ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت ص ٢٧٣،٢٧٤ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ط الأولى ١٩٤٦، انظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ٦٢

(٢٧)

كان حظه من هذه النفس أكثر وانصرافه إليها أتم وأوفر، ومن غلبت عليه إحدى النفسين الأخريين انحط عن رتبة الإنسانية بحسب غلبة تلك النفس عليه. ثم يقول فانظر أين تضع نفسك فإن هذا موكول إليك مردود إلى اختيارك)[١] وإن شئت فانزل في منازل البهائم فإنك تكون منهم وإن شئت فانزل في منازل السباع وإن شئت فانزل منازل الملائكة وكن منهم)- مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه يرى أن القوة العاقلة هي القوة التي لها الهيمنة على سائر قوى النفس وأنها إذا صلحت واعتدلت كانت الأخلاق الفاضلة وإذا فسدت كانت الأخلاق الذميمة وأن الإنسان كرمه الله بالعقل إذ به يميز بين الخير والشر والحسن والقبيح . وأن العقل مناط التكليف وأن مسلوب العقل غير مطالب بأوامر الشرع . ويقول الله تعالى(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)[٢]

ومن ثم كانت القوة العاقلة بها يتميز الإنسان عن الحيوان وأن الذي لا يمكن أن تقوده القوى العاقلة إلى سياسة الأمور والسيطرة على القوى الإنسانية الأخرى فلا فرق بينه وبين الحيوان قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) [٣]

ومن ثم كان الإنسان لا يتميز ولا يشرف إلا بالعقل وكلما كان عقله أتم كانت إنسانيته أكمل ويقول صاحب كتاب أدب الدنيا والدين عن فضل العقل

---

(١) تهذيب الأخلاق ، ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها ص ٢٧٤

(٢) الآية رقم ٧٠ سورة الإسراء

(٣) الآية رقم ٤٤ سورة الفرقان

وشرفه (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال (أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصري رضي الله عنه ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو ، والجهل أنكى عدو وقال بعض الأدباء صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل)[١]

ما ينشأ من صلاح القوة العاقلة أو فسادها : إن القوة العاقلة ابن عند ابن مسكويه هي القوى مرتبة وإنها المميزة للإنسان من بين سائر الموجودات ولا يكمل الإنسان ولا تكمل إنسانيته إلا إذا صلحت قواه العقلية وكانت لها السيطرة والهيمنة على القوتين الأخريين وكذلك لا يذم إلا بقدر ما يتركه من صلاح قواه العقلية فإذا فسدت قواه العقلية صار هو والبهيمة سواء وابن مسكويه يذكر أن هذه القوة إذا صلحت اعتدلت ونشأت عنها فضيلة الحكمة فيقول (أما الحكمة فهي النفس الناطقة المميزة وهي أي الحكمة أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة وإن شئت فقل أن تعلم الأمور الإلهية والأمور الإنسانية ويثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل)[٢]

مما سبق يتبين أن ابن مسكويه قد عرف الحكمة بأنها العلم بالموجودات كلها من حيث هي موجودة أو العلم بالأمور الإلهية والإنسانية وما يجب

---

(١) أدب الدنيا والدين ـ الماوردى ص ٢٣ دار الريان ط الأولى ١٩٨٨م

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم حسن تميم ص٤٠

(٢٩)

أن نفعله وما يجب أن نتركه ثم ذكر لنا ابن مسكويه حدود الحكمة وأنها وسط بين إفراط وتفريط وأن كلاً منهما أي الإفراط والتفريط رذيلة وأن الفضيلة هي الوسط فيقول (أما الحكمة فإنها هي الوسط بين السفه والبله وأعني بالسفه ها هنا استعمال القوى الفكرية فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي وأعني بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها وليس ينبغي أن يفهم أن البله ها هنا نقصان الخلقة بل ما ذكرت من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة)[١]

مما سبق نلاحظ أن القوة العاقلة هي الحكمة وتنشأ من اعتدال قوة العقل وصلاحها وهي وسط بين طرفين كلاهما رذيلة الإفراط والتفريط فالإفراط ينشأ عنه السفه والتفريط ينشأ عنه البله وكلاهما رذيلة ، أما الوسط فهو الحكمة وهي فضيلة القوة العاقلة.

ويقول صاحب كتاب ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها (إن السفه استخدام قوة الفكر فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي ويعني بالبله جمود هذه القوه وإهمالها ثم يقول إن البله هنا ليس بنقصان في الخلقة بل هو تعطيل القوة الفكرية بالإرادة)[٢] وأعلى نتيجة تنتجت عن صلاح القوة العاقلة ، وبين كذلك أن الحكمة تندرج تحتها فضائل كثيرة ، وبين لنا معنى كل فضيلة من هذه الفضائل التي تحت الحكمة .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم حسن تميم ص٤٦

(٢) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

ثانياً: القوة الغضبية

القوة الغضبية (وهي التي يكون بها الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع وضروب الكرامات)[١] يفهم من هذا أن الغضب دافع من دوافع النفس وقوة كامنة في داخلها وهو موجود في الإنسان والحيوان إلا أن الإنسان يستطيع بعقله ودينه قمع هذه القوة والسيطرة عليها وإخضاعها للعقل والدين وأما إذا لم يمكنه السيطرة عليها وعدم قدرته إلى التحكم فيها جره ذلك إلى المهالك وخسران الدنيا والآخرة ولذلك فإن ابن مسكويه يسمي هذه القوة بالقوة السبعية. ولكي نقف على الصواب كان لزاماً علينا أن نعرف حد الغضب .

تعريف الغضب :

أما الغضب فيعرفه (بأنه حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة للانتقام فإذا كانت هذه الحركة عنيفة ثار الغضب وأضر بها فاحتد غليان دم القلب فامتلئت الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً مضطرباً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ويصير مثل الإنسان عند ذلك كما يقول الحكماء مثل كف ملئ حريقاً وأضرم ناراً فيحترق فيه اللهيب والدخان ويعلو تأجج النار فيصعب علاجه ويتعذر إطفاءه ويصير كل ما يدنيه للإطفاء سبباً لزيادته ومادة لقوته فلذلك يعمى الإنسان عن الرشد ويصمه عن الموعظة بل تصير المواعظ في تلك الحال سبباً للزيادة في الغضب ومادة للهب والتأجج ولا يرجى له في تلك الحال حيلة ، ويرى ابن مسكويه أن الغضب

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم حسن تميم ص٣٧

في مبدأ أمره ليس واحداً في كل الناس وإنما هو يختلف حسب المزاج الخاص فإن كان مزاجه عنيفاً حاراً كان الغضب إليه أسرع وكان كما يقول كالكبريت الذي إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب أما صاحب المزاج الهادئ فحاله على العكس وهذا في أول الغضب ومبدءه ، ولكن الحال تكاد تتقارب عند كل منهما إذا اشتد واصطدم ويعتقد ابن مسكويه أن النفس إذا استشاطت غضباً فليس يرجى إخمادها وتهدئتها وذلك أن كل الوسائل التي تبذل من تضرع ومواعظ تكون بمنزلة الجزل من الحطب يوهجه ويزده اشتعالاً فلا سبيل إلى أن يسكن الغضب وهو محتدم ولهذا كانت نتائج الغضب ، فمن لواحقه الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلاً أو آجلاً وتغيير المزاج وتعجل الألم ومقت الأصدقاء وشماتة الأعداء واستهزاء الحساد والأرذال من الناس)[1] مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه جعل محل الغضب القلب وجعله بمثابة دخاناً مظلماً يرتفع إلى الدماغ حباً في الانتقام فإذا لم يستطع قد يؤدي إلى موت صاحبه وأن الناس بالنسبة للغضب أصناف على حسب الأمزجة والطبائع فمن كان مزاجه معتدلاً تحكم في ثورته الغضبية ومن كان مزاجه حاراً قاده إلى المهالك وكذلك وضح لنا بعضاً من نتائجه وهي لحوق الندامة والمجازاة في الدنيا والآخرة بالعقاب وكراهية الناس له في الدنيا وشماتة الأعداء ونلاحظ أن هذا شأن كثير من الناس في عصرنا الحاضر حيث نجد الإنسان عند الغضب يكون كل همه الرغبة في الانتقام خاصة إذا كان خصمه ضعيفاً لا يستطيع أن يرد كيده

---

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت ص٢٢٤،٢٢٥

أما إن كان خصمه كفئا له أو أقوى منه نجده يكظم غيظه ولعل هذا الصنيع لا يتفق مع تعاليم الإسلام يقول النبي صلى الله عليه وسلم (من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه خيره الله يوم القيامة في أي الحور العين شاء)[١] كذلك علمنا النبي صلى الله عليه وسلم كيف نعالج الغضب فعن أبي وائل القاضي قال دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلمه رجل فاغضبه فقام فتوضأ ثم رجع وقد توضأ فقال حدثني أبى عن جدي عطية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[٢] وفي رواية (فإذا غضب أحدكم فليغتسل)[٣] يفهم من هذا أن الغضب يجب أن يعالج في مبدئه لا عند قيامه كذلك يجب أن نتحاشى العوامل التي تساعد على إثارته وتدفع الإنسان إليه سريعا حتى نتجنب المقت في الدنيا والعقاب في الآخرة.

أسباب الغضب :

أما أسباب الغضب فكثيرة منها كما يقول ابن مسكويه (العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التي فيها عزة وتتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها . وأخيراً

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده حـ ٤ ص ٢٢٦ عن عطية السعدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٢) رواه أبو داوود في المفرد عون المعبود حـ ١٣ ص ١٤٠
(٣) رواه ابن عساكر عن معاوية كنز العمال حـ ١٣ ص ٥١٩

شهوة الانتقام التي هي غاية لجميعها فإذا أمكن للإنسان أن يبعد عن نفسه هذه العوامل قل غضبه وسكن فؤاده ولم يتعرض لتلك النتائج السيئة.

١- العجب: أما العجب فيعرفه ابن مسكويه (بأنه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها , حقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والتناقص التي تعتريها فإن الفضل مقسوم بين البشر وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره فواجب عليه ألا يعجب بنفسه)[١]

٢-الافتخار: أما الافتخار فيعرفه ابن مسكويه (بأنه حب المباهاة بما يملك الإنسان من الأشياء الخارجية وهي من طبيعتها زائلة لا تدوم وإن دامت فأجلها قصير فالمباهاة شئ عارض ومن أراد أن يفتخر حقاً فليفتخر بفضائله الشخصية التى لا تتعلق بالمقتنيات والحسب والنسب وإنما بقوة النفس وقدرتها على التحكم في شهواتها وفي الإعراض عن مغريات الحياة وأطماعها)[٢].

مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه جعل من أسباب الغضب العجب والافتخار وهذا صحيح ولكن القول بأن العجب والافتخار بمعناهما الذي وضحهما ابن مسكويه لا يصلحان بأن يكونا هما سبباً للتفاضل والتعالي على الناس لأن الناس خلقوا من أصل واحد هو التراب ومن أب واحد وأم واحدة قال تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت ص ٣٢٥
(٢) المرجع السابق نفسه ونفس الصفحة.

زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)[١] وبين لنا الله تبارك وتعالى المعيار الذي يكون به التفاضل بين الناس فقال تعالى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[٢]

٣ـ المراء واللجاج: (أما المراء واللجاج فهما يثيران الغضب بين الأصدقاء ويؤديان إلى الفرقة والتباغض واقتلاع المودة من أصلها لأنها سبب في الاختلاف ، والاختلاف سبب التباين الذي هو قبيح الأثر لأنه ضد الألفة التي يجب أن تقوم بين الناس عامة والأصدقاء خاصة)[٣]

٤ـ أما المزاح: (أما المزاح فهو محمود إذا كان معتدلاً والوصول إلى الاعتدال فيه صعب وأكثر الناس يبتدئ ولا يدري أين يقف منه فيخرج عن حده ويروم الزيادة فيه على صاحبه حتى يصير سبباً للوحشية فيثير غضباً كامناً ويزرع الأحقاد فلذلك كان من أسباب الغضب)[٤]

٥ـ التيه : يرى ابن مسكويه (أن التيه هو قريب من العجب والفرق بينهما أن المعجب يكذب على نفسه فيما يظن لها والتياه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه وذلك أن يعرف ما يتيه به لا تقدير له عند العقلاء وأنهم لا يقيمون له وزناً لحقارة شأنه وقلة قسطه من السعادة ولأنه غير ثابت ومتقلب ولأن الأموال على اختلاف

---

(١) الآية رقم ١ سورة النساء
(٢)الآية رقم ١٣ سورة الحجرات
(٣)ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها ص ٣٢٦
(٤)المرجع السابق ص ٣٢٦

أنواعها يمتلكها كل نوع من الناس الأشراف منهم والسوقة والعلماء منهم والجهال فأما الفضيلة والحكمة فهما تخصان الحكماء دون سواهم)[١]

١- الاستهزاء : أما الاستهزاء فيرى ابن مسكويه (أنه من عادة أهل المجون والفسق ومن على شاكلتهم فهم مسرورون مغتبطون بأنواع المساخر التي يصادفونها وهم في الغالب يذلون أنفسهم ليضحكوا غيرهم من أصحاب النفوس الصغيرة لينالهم بعض ما عندهم من البر والإحسان وهذا على عكس الفضلاء الأحرار فهم بعيدون عن هذا المقام جداً فالفاضل يكرم نفسه وعرضه عن تعريضهما للسفهاء وبيعهما ولو بجميع خزائن الملوك فضلاً عن الحقير التافه)[٢]

٢- الغدر : أما عن الغدر فله ألوان كثيرة فتجده في المودة والجاه والمال وهو مرذول مكروه لا يسلم من الذم عند سائر الناس فهو موضع لتفورهم وهذا الاجتماع في النيل من هذه الرذيلة يدلنا على انحطاط نفسية الغادر وفساد طبيعة الإنسان فيه فهو في درجة أقل بكثير من درجة العبيد لأن ابن مسكويه يرى أن الوفاء موجود في بعض هؤلاء وخاصة في جنس الحبشة والنوبة فأصحاب الغدر على اختلاف أنواعهم سادة كانوا أو سوقة يتساوون في الانحدار إلى الدرك الأسفل من الإنسانية ويكونون جنساً جديداً لا يرتكز على مميزات جنسية عضوية خاصة به وإنما على أساس أخلاقي جديد هو إحكامهم

---

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٢٦

(١)المرجع السابق نفسه ص ٣٢٧

اتباع الغدر وإساءة الناس ومضرتهم)[١]

٣- طلب الأمور التي فيها عزة : أما طلب الأمور التي فيها عزة ويتسابق الناس إليها عظمائهم والمتيسرون منهم في أمور معرضة للتلف ولا تجلب لأصحابها إلا كل خسران وكل جزع وكل حسرة لأنها نعيم ذائل يقول ابن مسكويه (إن الملك إذا حصل في خزانته جوهراً نفيساً فهو متعرض به للجزع عند فقده وضياعه)[٢]

الضيم : أما الضيم فيرى ابن مسكويه (أنه احتمال تكليف الظلم والغضب فربما يعرض منه شهوة الانتقام فينبغي ألا نسرع إلى الانتقام عندما يلحقنا ضيم حتى ننتظر فيه ونحذر ألا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم وهذا الانتظار والحذر هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه)[٣] من هذا يتبين أن كظم الغيظ وتحمل الأذى والضيم أمر حسن إذا لم يتجاوز حد الاعتدال وأن الحلم أفضل من التسرع وأن التحقق من الأمور وارجاعها للعقل والشرع أمر مطلوب أمرنا به الله تبارك وتعالى والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك فيقول (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون)[٤] وقوله تعالى (وسارعوا

---

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٢٧

(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- مسكويه تقديم حسن تميم ص ١٦٨، ١٦٩

(٤) الآية رقم ١٢٧ سورة النحل

إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)[١]

ما يترتب عن فساد القوة الغضبية :

١- التهور : لا شك أن رذيلة التهور تنشأ عن إطلاق السراح للقوة الغضبية إلى جانب الزيادة والتهور هو عدم التأني والإقدام على فعل الشر من غير داع يستوجبه يقول ابن مسكويه (إن الغضب جور وخروج عن الاعتدال ولذلك لا ينبغي أن نسميه بأسماء المديح وأعني بذلك أن قوما يسمون هذا النوع من الجور أعني الغضب غير موضعه (التهور) رجولية وشجاعة وشدة وشكيمة ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي بالحقيقة اسم للمدح وشتان ما بين المذهبين فإن صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدر عنه أفعال ردينة كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه حتى ينتهي إلى عبيده وإلى حريمه فيكون عليهم سوط عذاب ولا يقبلهم عثرة ولا يرحم غيره وإن كانو برآء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوء بل يتجرم عليهم ويهيج من أدنى سبب يجد منه طريقا إليهم حتى يبسط لسانه ويده وهم لا يمتنعون منه ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لشره وتسكينا لغضبه وهو مع ذلك مستمر على

---

(١) الآية رقم ١٣٣، ١٣٤ سورة آل عمران

طريقته لا يكف يداً ولا لساناً وربما تجاوز فى هذه المعاملة الناس إلى البهائم التى لا تعقل وإلى الأوانى التى لا تحس فإن صاحب هذا الخلق الردئ ربما قام إلى الحمار أو إلى الحمام والعصفور فيتناولهما بالضرب والمكروه وربما عض القفل إذا تعذر عليه وكسر الآنية التي لا يجد فيها طاعة لأمره وهذا النوع من رداءة الخلق مشهور في كثير من الجهال)[1] مما سبق نلاحظ أن التهور صفة ذميمة وخلق ردئ ينشأ من فساد القوة الغضبية ومن عدم العناية وإهمال سيطرة العقل وعدم التحكم والاتزان في الأمور ومن ثم يمكن القول بأن المرء إذا أراد أن تكون قواه الغضبية معتدلة خاضعة لقواه العقلية فعليه الالتزام بالتريث وعدم التسرع والتهور في تنفيذ ما يريد إلا بعد تفكر وتدبر إلى ما يصير إليه الأمر وبذلك ينال حسن الدنيا والآخرة .

٢- الجبن : بعد أن تحدثنا عن التهور وقلنا إن التهور هو طرف الزيادة (الإفراط) في الغضب وعلمنا أن الغضب هو أقبح الشهوات التي تنغص على الإنسان حياته وتدفعه إلى الشرور والاكتئاب نتحدث عن الطرف الثاني وهو أيضاً رذيلة التفريط (الميل إلى جانب النقصان) فينشأ عن هذا التفريط رذيلة هي أشد قبحاً وأعظم أثراً على النفس الإنسانية وهو الجبن وإن كان في صورته الظاهرة أقل وطأة على النفس حيث إنه هو سكون النفس وعدم تحركها ، وعليه : (فالجبن هو سكون للنفس عما

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ١٧٠،١٧١

(٣٩)

يجب أن تتحرك فيه وبطلان شهوة الانتقام ويرى ابن مسكويه أن للخوف نتائج سيئة كما للغضب نتائج سيئة تؤدي إلى أقبح النتائج في حياة الإنسان منها مهانة النفس وسوء العيش وطمع طبقات الأنزال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين وقلة الثبات والصبر في المواقف التي يجب فيها الثبات وهو أيضاً ثوب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سبب كل رذيلة ومن لواحقه الاستخذاء والرضا بكل رذيلة وضيم . والدخول تحت كل فضيحة في النفس والأهل والمال وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف واحتمال كل ظلم من كل معامل وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس)[١]

يفهم من هذا أن الجبن رذيلة قبيحة يجب على الإنسان التخلص منها وهو داء معضل يجب مقاومته وعلاجه وابن مسكويه ضرب لعلاج هذا المرض النفسي وجوه هي :

١- الوجه الأول : (مقاومة الكسل بأن يوقظ الإنسان نفسه بإثارة نشاطه الخاص لأن القوة الغضبية كامنة فيه بالفطرة ولكن ينقصها المران وعادة التحقق بالفعل وهي بهذا الحال تشبه النار تحت الرماد إذا انقشع عنها ظهرت حرارتها وبان لهيبها.

٢- الوجه الثاني : ترك التشاؤم واللجوء إلى عكس ذلك وإلى الظن الجميل والأمل القوي لأن توقع المكروه وظن السوء بالمستقبل والخوف من وقوعه عاجلاً أو آجلاً من شأنه أن ينغص على الإنسان حياته

---

(١) ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٢٩، ٣٣٠

ويجعله دائماً في غم ونكد وخاصة أن أمر المستقبل بيد القدر لا يمكن أن يجزم الإنسان بما سيقع فيه من الحوادث العظام أو الهينة فافتراض ضرورة حدوثها فيها كثير من المغالاة في التصور وتعجل للمكروه فهي قد تكون وقد لا تكون وليس يجب على العقل أن يصر على حدوثها ويتوهم الخوف منها)[١] مما سبق يتبين أن الإنسان يجب أن يكون قوي العزيمة صادق الإرادة في معالجة ضبط النفس ونلاحظ من كلام ابن مسكويه أنه قد يكون موافقاً لما جاء به الإسلام الحنيف حيث إن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير)[٢]

٣- الوجه الثالث : يجب أن نتروي ونتحاشى سوء الاختيار في الأمور الممكنة فننظر إلى عواقبها ولا نقدم عليها إلا بعد تأن وتفكير أما الأشياء الضرورية كالهرم مثلاً فعلاج الخوف منه أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة فقد أحب لا محالة الهرم واستشعره استشعاراً لا بد منه والمستشعر لثقل الهرم وأمراضه والعرف أنها شرائط لازمة مرافقة له لا يخاف منها بل ينتظرها برحابة صدر فالنفس يجب أن تتحمل ضروريات طبائع الأشياء وإن كانت غير سارة)[٣] . من هذا النص يفهم أن ابن مسكويه يحذر من الأمور السيئة واختيارها وما يترتب عليها وينهى

---

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٢٩، ٣٣٠

(٢) الآية رقم ٣٤ سورة لقمان

(٣) ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٣١

عن الخوف مما يترتب على الهرم ونلاحظ أن هذه الأمر ليس مطلقا فإن الخوف قد يكون مذموماً إذا زاد عن حده ، والمعلوم أن كل شئ يزيد عن حدة ينقلب إلى ضده أما الخوف إذا لم يتجاوز الحد فهو محمود فخوف الإنسان من سوء العاقبة يجعله يقدم على فعل الخير والالتزام بما أمر الله وهذا أمر محمود وكذلك خوف الإنسان من الخزي والخجل في دنياه على فعل القبيح كذلك أمر محمود والذي لا يخاف من الخزي والخجل والمحافظة على الشرف والرفعة فإن هذا إنسان جدير بأن يطلق عليه رجل معتوه أو أبله (أي لا يحسن التصرف) .

ما يترتب على صلاح القوة الغضبية :

من خلال دراستنا لمنهج ابن مسكويه الأخلاقي وحديثه عن القوة الغضبية وبيان أسبابها وما يلحق بها من رذائل وبيان طرق التخلص من هذه الأسباب وكيفية علاجها ذكر لنا ما يترتب عن هذه القوة الغضبية وهي فضيلة الشجاعة وإنها وسط بين الإفراط والتفريط لا تهور ولا خوف ولا جبن ، يقول ابن مسكويه (الشجاعة فضيلة النفس الغضبية وتظهر في الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمالها ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة أعني ألا يخاف الإنسان من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلاً والصبر عليها محموداً ويراها (أي الشجاعة) أنها وسط بين رذيلتين إحداهما الجبن والأخرى التهور أما الجبن فهو الخوف فيما لا ينبغي الخوف منه وأما التهور فهو الإقدام على ما ينبغي أن يخاف منه)[1]

---

(١) ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٢٩٠

مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه جعل فضيلة النفس الغضبية خاضعة تماماً لسيطرة النفس الناطقة وأن العقل إذا تحكم وسيطر على القوة الغضبية للإنسان نتج عنها الشجاعة ، والشجاعة أمر محمود ، وابن مسكويه يعرف لنا الرجل الشجاع فيقول (وأما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقهر بحلمه غضبه ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه ، حتى يتروى وينظر كيف ينتقم وممن، وعلى أي قدر أو كيف يصفح ويغضي عمن وفي أي ذنب وقد ضرب ابن مسكويه لنا مثالاً للشجاعة في محلها فحكى عن الإسكندر أنه قد بلغه كلام عن بعض أصحابه بأنه يعيب عليه وينقصه فقال له بعض أصحابه لو أدبته بعقوبة تنهكه بها فقال كيف يكون إنهاكه بعد عقوبتي إياه في سبي وطلب معانبي فلم يعاقبه)[1] وفضيلة الشجاعة من حسن سياسة القوة العاقلة للقوة الغضبية والشجاعة من الفضائل الأساسية للنفس الإنسانية وتندرج تحتها فضائل كثيرة منها . يقول ابن مسكويه : (١) كبر النفس (٢) النجدة (٣) عظم الهمة (٤) الثبات (٥) الصبر (٦) الحلم (٧) عدم الطيش (٨) الشهامة (٩) احتمال الكد .

وابن مسكويه عرف لنا كل صفة مندرجة تحت فضيلة الشجاعة فقال :

١ـ كبر النفس : (أما كبر النفس فهو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل المكروه والهوان فصاحبه أبداً يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ١٧٢،١٧١

٢- النجدة : وهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع .

٣- عظم الهمة : وهي فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التي تكون عند الموت .

٤- الثبات : فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها في الأهوال خاصة .

٥- الحلم : وأما الحلم فهو فضيلة النفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة .

٦- السكون : وأما السكون الذي نعني به عدم الطيش فهو إما عند الخصومات وإما في الحروب التي يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة وهي قوة للنفس تفسر حركاتها في هذه الأحوال لشدتها .

٧- الشهامة : ويعني بها الحرص على الأعمال العظام توقعاً للأحدوثة الجميلة .

٨ -احتمال الكد : وهو قوة للنفس تستعمل آلات البدن في الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة)[١] مما سبق نلاحظ أن الشجاعة فضيلة عظمى يجب أن تتحلى بها النفس الإنسانية وبما يندرج تحتها من صفات حميدة وبهذا يمكن القول بأن الصبر هو قوة توجد في الإنسان بها يتحمل ويتلقى كل ما يدور حوله من متاعب ومصائب في الأمور العظام ومما سبق نلاحظ أيضا أن الشجاعة ليست تهوراً ولا جبناً وهي الحد الوسط كما سبق أن أشرت أي لا إفراط ولا تفريط .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ٤٢،٤٣

ثالثاً : القوة الشهوانية : القوة الشهوانية هي من قوى النفس الإنسانية وأنها من أشد وأصعب القوى وأقدمها في الإنسان وأنها قوى مشتركة لا ينفرد بها الإنسان وحده بل يشاركه فيها الحيوان ولكن الإنسان يمكنه بقوته العقلية التحكم والسيطرة عليها فيسوسها ويقودها أما إذا لم يمكنه ذلك فهو قريب من الحيوانية بعيداً عن الإنسانية والقوى الشهوانية قوة كامنة في بدن الإنسان بها يكون الميل إلى الملاذ التي تكون في المآكل والمشارب والمناكح وسائر ضرورب المشتهيات الحسية وفي هذا يقول مسكويه(قوة الشهوة هي التي قد تكون بها الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وشروب اللذات الحسية)[1] يفهم من هذا أن القوة الشهوانية قد تكون محمودة وقد تكون مذمومة فإذا اعتدلت وخضعت لقوة النفس الناطقة وكانت في حد الوسط لا إفراط فيها ولا تفريط كانت محمودة وطرفي الإفراط والتفريط مذمومتان فالإفراط هو الزيادة عن حد الاعتدال وينشا عنه رذيلة الشره وكذلك التفريط هو الميل إلى النقصان ينشأ عنه رذيلة الخمود وهى أيضا مذمومة أما إذا اعتدلت وخضعت لحكم العقل ولم تتجاوز الحد الذي أمر الله به في الشرع كانت محمودة وتنشأ عنها فضيلة العفة .

أما العفة فيعرفها ابن مسكويه (بأنها فضيلة الحس الشهواني وظهور هذه الفضيلة في الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأي والتمييز الصحيح حتى لا يخضع لها (الشهوات) ويصبح بذلك حراً غير مستعبد لشئ منها.

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه ص ٣٧

(٤٥)

ويراها ابن مسكويه وسطاً بين الشره وخمود الشهوة ويعرف ابن مسكويه الشره بأنه : (هو الانهماك في اللذات والخروج فيها مما يجب ويعرف خمود الشهوة بأنه هو السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته التي تسمح بها الشريعة والعقل)[١] مما سبق نلاحظ أن قوة الشهوة تصلح وتكون محمودة إذا كانت معتدلة خاضعة لإشارة العقل والدين وكانت في نطاق ما أحله الله وعلى الإنسان أن يلتزم بالعفة ولا يجري خلف شهواته حتى لا تفسد هذه القوة فإن فسادها يعرض الإنسان نفسه للمقت بين الناس وعقاب الله يوم القيامة وكذلك عليه ألا يهملها إهمالاً كاملاً فإن ذلك أمر مذموم وأنها من ضروريات الحياة فتركها أو إهمالها يؤدي إلى انقطاع النسل وهذا أمر مذموم ومخالف للشرع .

الفضال التي تندرج تحت العفة :

إن فضيلة العفة من الفضائل الرئيسية وأن تحتها فضائل كثيرة منها (الحياء والدعة والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدماثة والانتظام وحسن الهدى والمسالمة والوقار والورع)[٢]

١- الحياء : (أما الحياء هو انحصار النفس خوف إتيان القبائح والحذر من الذنب والسب الصادق .

---

(١)ابن مسكويه- فلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت ص ٣٨٩ وانظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه ص ٤٠

(٢)تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ٤١

٢ـ الدعة : أما الدعة فهى سكون النفس عند حركة الشهوات.

٣ـ الصبر : وأما الصبر فهو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات .

٤ـ السخاء : وأما السخاء فهو التوسط في العطاء .

٥ـ الحرية : وأما الحرية فهي فضيلة النفس بها يكتسب المال من وجهة ويعطي في وجهة ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهة .

٦ـ القناعة : وأما القناعة فهي تساهل في المآكل والمشارب والزينة.

٧ـ الدماثة : أما الدماثة فهى حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرعها إلى اليمين .

٨ـ الانتظام : أما الانتظام فهو حال للنفس تقودها إلى تقدير الأمور وترتيبها كما ينبغي .

٩ـ حسن الهدى : وأما حسن الهدى فهو محبة تكمن فى النفس بالزينة الحسنة .

١٠ـالمسالمة : أما المسالمة فهي موادعة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطرار فيها .

١١ـالوقار : وأما الوقار فهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب .

١٢ـالورع : أما الورع فهو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال للنفس)[1]

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه تقديم الشيخ حسن تميم ص ٤١،٤٢

(٤٧)

مما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه قد أحصى لنا أنواع الفضائل المندرجة تحت فضيلة العفة ، وبين تعريف كل فضيلة منها ولكن لم يشرحها شرحا وافيا ومع ذلك فإنه قد أجاد في إحصائه لهذه الفضائل .

الفصل الثانى

الفعل الإنسانى عند ابن مسكويه

المبحث الأول : تعريف الفعل الإنسانى

أ- الفعل الإنسانى عند الأخلاقين

يعرف الفعل الإنساني بتعريفات عدة ، سواء أكان ذلك عند الأخلاقيين أم عند غيرهم ولكنني سأقتصر على تعريفه عند الأخلاقين ثم عند ابن مسكويه في ضوء البحث. فمن هذه التعريفات:

١- أنه نظام يتجه إليه الإنسان بإرادته واختياره معبراً عن رغبته الخاصة تضبط من خلاله حركة الإنسان فيما يريد فعله [١] وهو تعريف قد يكون مقبولاً على وجه ما ، ولكنه يقترب من التعاريف العامة ، ومثله يكون موضياً بالغرض.

٢-أنه ما يصدر عن الأنسان ملبياً احتياجاته الغريزية ، مؤكداً دوره فيما صدر عنه كمسؤل أمام نفسه ، وأمام الله ، وأمام مجتمعه على السواء[٢]

---

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد يالجن – ص ١٠٣ مكتبة الخانجي – القاهرة ط ١٩٧٣م

(٢) مدخل إلى علم الأخلاق د/ فوقية حسين محمود ص ١٥ مكتبة زريق القاهرة ط ١٩٨٤

(٤٨)

والملاحظ أن هذا التعريف قائم على تلبية الإنسان لاحتياجاته الغريزية مع مراعاة المسؤلية التابعة من إيمانه بالله ، ومراعياً أيضاً المجتمع الذي يعيش فيه بما يفرضه عليه من عادات وتقاليد.

٣-أنه الذى يقع من الإنسان على سبيل الإرادة المحضية فيتوصل به إلى السعادة وحينئذ يسمى خيراً ، أو إلى الشقاوة ويسمى شراً ، والأمور الموصلة إلى السعادة هي بعينها قوانين الأخلاق فمخالفها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ، ومطيعها مطيع لأمر الله مؤد لواجبه[١] ونلاحظ من خلال التعاريف السابقة أن علماء الأخلاق من أهل الإسلام قد ألمحوا إلى أن الفعل الإنساني يقوم على قاعدة التكليف الشرعي وبالتالي فهي تشمل جميع الناس سواء في النتائج المترتبة عليها أم في القواعد العامة القائمة فيها ما داموا قادرين على القيام بها ، بينما هي عند الأخلاقيين من غير أهل الإسلام قائمة على قاعدة الإلزام الخلقي وليس الإلزام الشرعي ، فنتج عن ذلك وجود تماسك داخل الفكر الإسلامي ، وانعدام ذلك عند غير المسلمين (وذلك لأن الأخلاق في الإسلام جاءت شاملة لمختلف جوانب الحياة بهدف صياغة حياة الإنسان الخلقية ، وحفظ القيم والمثل العليا بجانب الموازنة بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع)[٢]

---

(١) كتاب الأخلاق أ/ أحمد أمين ص٢٣٢ ط٢ ١٩٢١

(٢) روضة القاصد وجنة المقاصد – موفق الدين عبدالله بن أحمد المقدس ص٢٦ نقلا عن الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام د/ محمد السيد الجليند ص١١٢ بتصرف مكتبة نهضة الشرق ط٢القاهرة ١٩٩٠

(٤٩)

وعلى حد قول الدكتور عبد المقصود عبد الغني " إن الأخلاق في الإسلام تفرض من باب التكليف على المسلم طاعة الله تعالى الذي يعد المصدر الأول للتكاليف الخلقية ورضاه جل شأنه هو الغاية النهائية وراء كل فعل خلقي "[١]

وفي تقديري أن هذه التعريفات تؤكد أن المفكر الإسلامي كان واعياً لكل ما يصدر عنه مؤكداً على أن الإنسان متميز عن غيره وأن هذا التمايز إنما جاءه من ناحية الله تعالى لا من ناحية ذاته ، ومن ثم فخليق به أن يقوم في كل ما يصدر عنه على طاعة الله تعالى ، ثم إن المفكر الأخلاقي المسلم قد نظر عند تعريفه للفعل الإنساني إلى التكاليف الشرعية فاعتبرها المثال الذي يرشد الإنسان ويهديه ، ولم ينظر إلى الطبيعة المجردة باعتبارها هي التي ترشد الإنسان وتهديه ، فالتكاليف هي المثل الأعلى ، أما ممارسة الإنسان لفعله فهو الواقع العملي "وبين المثل الأعلى والواقع العملي يوجد الضمير الإنساني وهو عبارة عن علاقة توحيد يجب أن يستمر فيها التقريب بين هذين الطرفين"[٢]

الفعل الإنساني عند ابن مسكويه

عرف ابن مسكويه الأفعال الإنسانية بأنها : (الأمور الإرادية التي به تتعلق قوى الفكر والتمييز)[٣]. وعلى هذا التعريف قد أخرج ابن مسكويه

---

(١)الأخلاق بين الفلسفة والإسلام د/ عبد المقصود عبد الغني ص٢٠٦ مكتبة الزهراء القاهرة

(٢) دستور الأخلاق في القرآن د/ محمد عبدالله دراز ص ١٣٩ مؤسسة الرسالة بيروت

(٣)تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه ص ١٩ تحقيق ابن الخطيب ط ١ المطبعة المصرية ١٣٩٨م

(٥٠)

الأفعال الغير إرادية من مجال الفعل الإنساني من حيث الحكم عليها بالصواب أو الخطأ ، فالعبارة التي ذكرها تبين حرصه الشديد كمفكر إسلامي على قضية أساسية وهامة وهي حرية الإرادة في الإنسان ومسئوليته عما يصدر عنه من أفعال ، وبذلك فهو يجعل الإنسان مسؤلا مسؤلية كاملة عن تقصيره وخطئه بسبب تقاعسه عن العمل أو عدم ضبط نفسه على شرع الله ، ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين قد يتقاعسون عن أعمال معينة فلا يؤدونها بما تتطلبه من همة ونشاط كما أمروا وحينئذ تأتي النتائج غير متوافقة مع الآمال ثم ينسبون ذلك الفشل إلى إرادة الله وهي مما نسبوا إليها براء[1]

ولا يفهم من تعريف ابن مسكويه أنه يجعل حرية الإرادة الإنسانية بلا قيود أو ضوابط ، كما ينظر إلى هذه الحرية باعتبارها مجردة عن القواعد التي تقوم عليها ، ولكننا عند التحقيق نجد أنه أقام هذه الحرية على أمرين:

الأول: قوة الفكر : وهي لا تكون في كل الناس سواء لما هو معروف من أن الناس يختلفون في القدرات فمنهم النابه الذكي ومنهم الخامل البليد ومنهم الوسط بين الأمرين

الثاني: التمييز : وذلك أن الإنسان قد يدرك بفكره أشياء كثيرة لكنه لا يستطيع التمييز بينها والتمسك بالصالح وهجر الفاسد منها ومثل ذلك لا يكون مؤهلاً لصدور أفعال إرادية منضبطة عنده وذلك لأن المميز في

---

(١) الفعل الإنساني بين المتكلمين والأخلاقيين والفلاسفة د/ سميرة عبد الرحمن عبده ص ٢٩٢ رسالة ماجستير بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

بعض الأحيان ، وتبقى كما هى ليس مميزاً في البعض الآخر لا تكون الأفعال الصادرة عنه منضبطة على وجه الكمال ، ومثله لا تكون أفعاله في المثالين سواء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم "[١] . كما أن الفعل الإنساني الذي يصدرعن الإنسان ذي القوة المفكرة والتمييز يجعله ابن مسكويه بحاجة إلى الروية والتأمل ، لأن التسرع يفقد الفعل بعض جودته كما يسقط عنه شيئاً من مروءته ومثله لا يكون فعلاً كاملاً وإنما يكون فعلاً ناقصاً ، وقد نبه إلى ذلك في نتيجة انتهى إليها حيث قال : (إذن الإنسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية)[٢] والملاحظ من تعريف ابن مسكويه للفعل الإنساني وتقييده بقوة الفكر وقوة التمييز أنه يرتقي بالإنسان على سائر الموجودات فعليه أن يضبط فعله بما يتناسب مع إنسانيته ليكون مستحقاً للنتيجة المترتبة على فعله بالثواب أو العقاب .

المبحث الثانى : أنواع الفعل الإنساني

تمهيد :من الواضح الجلى أن ابن مسكويه عند تقسيمه للفعل الإنساني قد ركز على الأفعال الإنسانية الإرادية فقط ، وذلك لأن ما يصدرعن الإنسان

---

(١) رواه أبو داوود في سننه – كتاب الحدود باب في المجنون يسرف أو يصيب احدا حديث رقم ٤٤٠١ حـ٤ ص ١٤٠ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الحديث القاهرة بدون وانظر المصدر السابق ص ٢٩٣

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه ص ٢٠

قد يكون في اليقظة وقد يكون في النوم ، كما أنه قد يكون بين اليقظة والنوم أيضا وكلاً منها قد يقع لا إرادي ، أما الإرادي فلا يكون إلا في اليقظة التامة مع القصد إلى ذات الفعل وهذا ما نبه إليه ابن مسكويه حيث قال : (كل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل في انسانيته)[١] ولأن الأفعال الإنسانية الصادرة من الإنسان تنسب إليه ، فقد كان المتناسب معها الإرادية منها فقط ، أما اللاإرادية أو الاضطرارية فإنها تتعلق بإرادة من خارجه قوة ليس متمكناً منها فهو مجبر عليها وبالتالي فإذا صحت منها مثوبة كانت بعيدة من الأصل ، وإذا صحت عنه عقوبة كانت قائمة على غير قصد وهي مهمة قد حرص ابن مسكويه على بيانها والوقوف عليها ولذلك نجده يدقق في عباراته ليفرق بين وجود الإنسان وبين صدور أفعاله عنه فعبر عن الأول: "بوجود الجوهر الإنساني" ويقصد به تركيبه ككل من أطراف وخواص قائمة بذاتها وهو مجمل الجسم والروح والعقل ، وعن الثاني بتجويد الجوهر الإنساني ويقصد التأنق في العمل وتخيره لأن يكون جيداً وفي هذا يقول : (إن وجود الجوهر الإنساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه تعالى .. وأما تجويد جوهره فمفوض إلى الإنسان وهو متعلق بإرادته)[٢] وبهذا يتضح لنا أن الجانب الأول وهو وجود الجوهر الإنساني متعلق بقدرة فاعله وإرادة خالقه وعلمه وحكمته الذي لا يغيب عن علمه شئ أبداً

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه ص ٢٠
(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٤٨، ٤٩ بتصرف

وهذا الجانب مما يخص الله تعالى وحده ، وأما تجويد الجوهر الإنساني فهو إتيان الأفعال على سبيل الكمال المقدر له إذ ليس مطلوب من الإنسان الإتيان بالكمال المطلق لما هو معروف من أن كل إنسان فيه نقص يتساوى مع ذاته وتعبر عنه طبيعته وأفعاله هي من أبرز الظواهر على تجويده كجوهر أو تدينه ، وبالتالي فهو مسؤل عنها فهي تصدر عنه بإرادته الحرة ثم تنفذ بقدرته المخلوقة له.

وفي تقديري أن ابن مسكويه كان واعياً لغرضه محدداً لهدفه طبقاً لمعطيات النصوص الدينية التي بينت أن الله لا يحاسب الناس على ما لا يصدر عنهم إلا بإرادة حرة وإختيار كامل.

ويقسم ابن مسكويه الفعل الإنساني الإرادي إلى نوعين

الأول : الفعل الإنساني الإرادي الخير

الثاني: الفعل الإنساني الإرادي الشرى

باعتبار أن ما يصدر عن الإنسان من ناحية فعله الإرادي قد يحكم عليه بالخير فيكون فعلاً خيراً ، وقد يحكم عليه بالشر فيكون فعلاً شراً .

أولاً: الفعل الإنسانى الإرادي الخير

يعرف ابن مسكويه الخيرات فيقول: (إن الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ومن أجلها خلق)[١]

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه ص ١٦

وابن مسكويه ينظر إلى هذا القسم نظرة فيها شئ من اليسر والسهولة معاً ، إذ يرى أن الخيرات هي الحاصلة للإنسان بإرادته الحرة ، وسعيه المستمر، وتفهمه للأمور والغايات التي هو أحد نتائجها. وهي خيرات قائمة بذاتها ، لا باعتبار النظر إليها، وتلك مسألة نظر إليها الدارسون نظرة فيها شئ من القسوة على ابن مسكويه ، إذ انتهى بعضهم إلى الحكم بأنه ابتعد بتفكيره الأخلاقي عن مؤثرات الدين وتعاليم الشرائع ، وأنه تفكير قد وضع للخاصة والمثقفين لا لسائر بني الإنسان[١]

ونحن نلاحظ أن هذا الحكم فيه كثير من العجلة ، وذلك لأن الرجل في كل ما مر ذكره كان قائماً على الأصول الشرعية، أما كونه قد وضع أسسا للتفكير تتناسب مع الخاصة والمفكرين ولا تتناسب مع سائر الناس فتلك مسألة تعتبر قاسماً مشتركاً في كل العلوم ، كعلم النحو مثلاً لا يهمه إلا الخاصة وكذلك علم الفقه وعلم التفسير بل وعلوم اللغة العربية والشرعية جميعا.

فالخيرات عند ابن مسكويه غاية متحصلة في الإنسان باعتبار أنه خلق من أجلها ، وهي المسألة التي تحتاج إلى وقفة إذا اعتبرت أن مراده هو وقوع أفعال الله تعالى ومنها وجود الإنسان نفسه لعله محددة ، لما هو معلوم عند الأشاعرة من أن أفعال الله تعالى غير معللة ، وخلافاً لشيخ الإسلام ابن تيمية الذي يرى أن أفعال الله تعالى معللة[٢]

---

(١) ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبدالعزيز عزت ص ٣٤٨، ٣٥٢ بتصرف

(٢) حصاد الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي حـ ٣ ص ١٨٥ - ١٨٦ بتصرف مطبعة صبحي بالزقازيق

(٥٥)

ومن الممكن أن نوفق بينهما بأنها على رأى الأشاعرة غير معللة بعلة راجعة إلى الله تعالى ، لأن الله لا يستفيد بطاعات أحد ، كما لا يتضرر بمعصية أحد ففي الحديث القدسي عن أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تعالى أنه قال (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أو فيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1] وأما على رأي شيخ الإسلام ابن تيمية فيمكن القول بأن أفعال الله تعالى معللة بعلة راجعة إلى العباد أنفسهم من العبادات ذاتها ، وإلا كانت العبادات والتكاليف ضرب من العبث والله منزه عن العبث . ومن الأدلة على ذلك ما يلى :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب- باب ١٥ حديث رقم ٢٥٧٧ حـ ٦ ص ١٠١

١ـ قوله تعالى في الصلاة:" اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون"[١]

٢ـ قوله تعالى في الصوم:"أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون"[٢]

٣ـ وقوله تعالى في الزكاة " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم"[٣]

٤ـ وقوله تعالى في الحج " الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب"[٤]

أقسامه :

يرى ابن مسكويه أن الأفعال الإنسانية الخيرة تتنوع إلى نوعين أحدهما بالفعل والثاني بالقوة ، وكل من الفعل والقوة هما الأخران يجينان :

أـ أفعال إنسانية خيرة شريفة

بـ أفعال إنسانية خيرة محمودة

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥

(٢) سورة البقرة آية ١٨٤

(٣) سورة التوبة آية ١٠٣

(٤) سورة البقرة آية ١٩٧

وهذان النوعان يكونان بالفعل من وجهة نظر ابن مسكويه إذا كانا في دائرة التنفيذ ، أما إذا لم يكونا في دائرة التنفيذ- وإن كانا قابلين لها ، فإنه يعتبرهما من الأفعال الإنسانية الخيرة بالقوة. يقول ابن مسكويه: (إن الخيرات أقسام كثيرة، منها ما للإنسان شريفة ، ومنها ما للإنسان ممدوحة ، ومنها ما للإنسان بالقوة كذلك ، ونعني بالقوة التهيؤ والاستعداد) [١]

ويعرف ابن مسكويه الخيرات الشريفة بأنها هى التي " شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفاً وهي الحكمة والعقل"[٢]

وأن الخيرات الممدوحة هي " الفضائل والأفعال الجميلة الإرادية والتي هي بالقوة ، مثل التهيؤ والاستعداد لمثل تلك الأشياء" [٣]

ويرى ابن مسكويه أن الخيرات تنتج عنها السعادات ، فالسعادات في نظره (خيرما ، وهي تمام الخيرات وغاياتها، والتمام هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شئ آخر)[٤]

وهو بهذا الجانب يتميز بمسايرته نصوص الدين ، فالقرآن الكريم يقرر ذلك في مثل قوله تعالى: " فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون"[٥]

وقد نظر ابن مسكويه إلى الخيرات فوجدها متنوعة من حيث القيام بها كما نظر إليها من حيث ورودها في النفس الإنسانية فوجدها متكاثرة

---

(١) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه ص ٢٠
(٢) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه ص٨٨
(٣) المصدر السابق ص٨٨
(٤) المصدر السابق ص٩٠
(٥) سورة الأنبياء آية ٩٤

وبالتالي فقد رأى أن الجماعة الإنسانية يجب أن تتعاون فيما بينها حتى تتحقق الخيرات فتحصل السعادات : يقول ابن مسكويه: (ولما كانت هذه الخيرات الإنسانية وملكاتها التي في النفس كثيرة ، ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منها، ولذلك وجب أن يكون هناك أشخاص كثيرون وأن يجتمعوا في زمن واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له فتكون الخيرات مشتركة والسعادة مفروضة بينهم فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنساني وتحصل لهم السعادات)[١]

فابن مسكويه بهذا قد سبق إلى بناء المجتمعات الفاضلة الأخلاقية قبل أن يعرفها دعاة الغرب.

ولما كان الخير اسم عام جامع يشمل جميع ألوان الخيرات كلها فإن ابن مسكويه قد حرص على تحريك المشاعر نحوه ، وأمسك العواطف من هامتها وساقها إليه ، مقتدياً بالقرآن والسنة واضعاً في حسبانه حب الله تعالى وحب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله جل شأنه " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم"[٢]

وانطلاقاً من ذلك فقد اعتبر ابن مسكويه الحب قاسماً مشتركاً بين الناس ومعلماً من معالم الخير شريطة أن يكون ذلك متداولاً بينهم بعضهم البعض

---

(١) تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه ص٢٢-٢٣

(٢) سورة آل عمران آية ٣١

على سبيل الوجوب فيحدث تبادل بين أفراد المجتمع وفي نفس الوقت يحدث تعاون بينهم فتحقق ألوان الخيرات وبالتالي تحصل السعادات يقول ابن مسكويه :(ولأجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك ما تمت للفرد سعادته ، فيكون إذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه)[١]

وكيف لايتحقق هذا القول وقد قال الله تعالى في وصف الرسول وأمته:

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنو وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيا"[٢]

وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف المؤمنين: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [٣]

ثانياً : الفعل الإنساني الإرادي الشرى

ولما كان الخير لا يستبين إلا بمواجهة الفعل الناتج عنه الشر لذا سأقوم بعرض القسم الثاني من الفعل الإنساني المتعلق بالشرور عند ابن مسكويه.

---

(١)تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه ص٢٣

(٢) سورة الفتح آية ٢٩

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب- باب ١٧ تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم حديث رقم ٢٥٨٦

عرف ابن مسكويه الشر بأنه (الأمر الذي يعوق الإنسان عن بلوغ الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه)[١]

وهو بهذا يقرر حقيقة ثابتة ، وهي أن ما يصرف عن الخير يعتبر شراً ، حتى وإن لم يؤد إلى شر . وذلك لأن الخيرات أعمال صالحة تتعلق بها المثوبة والأجر فإن انحبس عنها صاحبها فقد وقع في الشر سواء كان ذلك الحبس أو الامتناع باختيار منه أم كان ذلك بتفضيل شئ على آخر لم يكن موفقاً فيه أم كان بسعيه إليه أم تحقق ذلك ولكنه انصرف إلى الكسل وابتعد عن العمل يقول ابن مسكويه : (الشرور هى الأمور التي تعوق الإنسان عن هذه الخيرات وصولاً إليها وتمكناً منها ، ويكون ذلك المعوق بإرادة الإنسان وسعيه أو كسله وانصرافه)[٢]

وبالتالي فإن ابن مسكويه لا ينظر إلى الفعل الواقع بالإكراه لأنه خارج نطاق إرادة صاحبه فيكون مكرهاً فيه مجبراً عليه ومثله يتنافى مع الحرية والإرادة وينتهي إلى الجبر ويكون فعلاً إنسانياً لا إرادياً وهو خارج نطاق الأفعال الإرادية يقول ابن مسكويه : (إن الخيرات والشرور في الأفعال الإرادية هي إما اختيار الأفضل والعمل به فتكون خيرات وإما الأدون والميل إليه فتكون شروراً)[٣]

ويبدو أن مفهوم الفعل الإنساني متسع عنده بحيث يشمل الفعل إيجاباً أو سلباً ، كما يشمل القول ، باعتبار أنه معبر عن فعل على الناحية النظرية

---

(١) تهذيب الأخلاق ـ ابن مسكويه ص ٢٠
(٢) المصدر السابق ص ٢٠
(٣) تهذيب الأخلاق ص ٢٠

وهو عمل اللسان وكذلك يشمل النوايا لورود الحديث النبوي بأن الهم القلبي عمل هو الآخر فقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة[1] وعلى هذا فإن الهم عمل قلبي يقوم على ترجيح قصد الفعل على قصد الترك والعكس ويدخل فيه العزم أيضاً ... فدل ذلك على أن عمل القلب له اعتبار في الأحكام الشرعية [2]

أقسام الفعل الإرادي الشري :

قسم ابن مسكويه الفعل الإرادي الشري إلى قسمين

١- شر مطلق :

وهو الذي يصدر عن صاحبه مع القصد عليه كالقتل العمد واستحلال أموال الآخرين بلا مبرر وممارسة الأفعال المنهي عنها شرعاً مع القصد إليها واستحلالها في نفس الوقت، وبالتالي لا يدخل فيها السلوك المنعدمة الأثر الظاهر ، كمن رأى جريمة ترتكب ولم يرفضها أو يقم بدفع مرتكبها وإنما اكتفى بمجرد عدم المشاركة فالشر المطلق يترتب عليه فساد كبير يصعب علاجه ، كما أن آثاره تمتد فتشمل الكثيرين فتكون أفعالاً غير منسجمة

---

(١) رواه مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب- باب ١٧بيان تجاوز الله تعالى من حديث النفس والخواطربالقلب إذا لم تستقر حديث رقم ٢٠٤ حـ ٢ ص٣١٣

(٢) النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية – محمد منير الدمشقي ص ١٧ بهامش الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية لعبد الرووف المناوي ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت

أخلاقيا فتحطه من درجة الإنسانية الكاملة إلى البهيمية الكاملة يقول ابن مسكويه (والإنسان إذا نقصت أفعاله التي تصدر عنه وعن رويته أحرى بأن يحط مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية)[١]

٢ـشر نسبي :

ذهب ابن مسكويه إلى أن الدنيا لا تخلو من شرور ولكنها غير مقصودة لذاتها وإنما جئ بها لإصلاح ما هو أفضل فكل شر نسبي هو خير نسبي من جهة أخرى يقول ابن مسكويه: (إن الاغترار بالأمور الحسية التي تشغل الإنسان عما عرض له من تزكية نفسه التي ينتهي بها إلى الملك الرفيع والسرور الحقيقي وتخدعه عن الغاية الشريفة حقيق بالمقت من خالقه عز وجل خليق بتعجيل العقوبة له وإراحة العباد والبلاد منه[٢]

ومن ثم فإن تلك الشرور النسبية تباعدت أو تلاقت قلت أو كثرت فما هي إلا معبر عن اختيار صاحبها للفعل (الأدون والميل إليه)[٣] ومن ثم فإن الشرور لا توصل إلا إلى الشقاوة باعتبار أن الخيرات موصلة إلى السعادة التي هي أجناس قائمة ، فإذا انعدمت الخيرات ظهرت الشرور التي هي أجناس.

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٢١

(٢) المصدر السابق ص ٢١-٢٢

(٣) تهذيب الأخلاق ص٢٢

تعقيب

من كل ما سبق نلاحظ أن ابن مسكويه قد أقام قواعده في الفعل الإنساني كقيام النتائج مع المقدمات ، وإذا كانت المقدمات الخيرة تؤدي إلى سعادة، فإن المقدمات الشريرة تؤدي إلى الشقاوة ما دام ذلك كله يتم في الأفعال الإرادية ومن هنا صارت مسئولية صاحبها عنها قائمة مصداقاً لقوله تعالى :" فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"[١]

المبحث الثالث

السعادة وعلاقتها بالفعل الإنساني

من خلال دراستنا لمنهج ابن مسكويه الأخلاقي حول الفعل الإنساني يتبين لنا أنه بيَن الفعلَ وأثره على الإنسان باعتبار أن الخير يحقق السعادة والسعادة متحصلة به ، والشر يحقق الشقاوة وهي متحصلة به أيضاً .

وإننا إذ نتكلم في هذا المبحث عن السعادة نجد أن السعادة قسمين:

القسم الأول : السعادة الأخروية

وهي تقوم على الالتزام بما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله عليه السلام ، وبالتالي يكون المرء الملتزم بذلك سعيداً فيشعر بالهدوء النفسي وإن كان الآخرون من جانبه قلقين راضياً بما قضاه الله وقدره متأكداً أن ما أخطأ لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه فتحصل له القناعة والسعادة والرضا ولا يتحقق ذلك إلا باتباع شرع الله ، فيؤكد ابن مسكويه

---

(١) سورة الزمر آية ٧-٨

على أن الله تعالى (بعث الأنبياء صلوات الله عليهم ليعلموا الناس ويعينوهم على العمل بالشرائع فالرسل هم أطباء النفس يعالجونها من أسقامها ومنها الجهالة ويكون أمر علاجها بالأدب الحق لما يأخذونهم به من الآداب الصحيحة والأعمال النافعة ويطالبونهم بالاستسلام لهم بعد إقامة الحجة عليهم بالمعجزات فمن تبعهم ولزم حجتهم وقف على الصراط المستقيم ومن خالفهم تردى في سواء الجحيم)[١]

فالتمسك بالشرائع يجعل المسلم سعيداً في دنياه سعيداً في آخراه فكل ما ورد بالنقل المنزل يحقق السعادة للقائمين عليه المتمسكين به ، وابن مسكويه قد فطن إلى ذلك وحرص عليه ويعد ذلك من الجوانب التي اتسم بها وهذه السعادة جسمانية روحانية عقلية قلبية لأنها متعلقة بالإنسان حيث هو (ذو فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة)[٢]

وقد بنى ابن مسكويه فهمه هذا على النقول الشرعية حيث قال الله تعالى: " يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين"[٣] وقوله تعالى :" فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانو يعملون"[٤]

---

(١) الفوز الأصغر – ابن مسكويه ص٥٩

(٢) تهذيب الأخلاق ص٩٤

(٣) سورة الزخرف آية ٧١

(٤) سورة السجدة آية ١٧

القسم الثاني : السعادة الدنيوية

إذا كانت هناك نصوص تعرضت للسعادة الروحية فإن هناك نصوص أخرى أوجبت على الإنسان الملتزم تحقيق السعادة البدنية أيضاً فالإسلام حريص على الإنسان ككل. روحه وعقله، جسده ومشاعره ، سعادته في الدنيا والآخرة على السواء يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن لبدنك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً ولربك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه"[١] وقد أشار ابن مسكويه إلى هذا النوع مؤكداً أن العاقل لا بد أن يأخذ منها معتدلاً بلا إفراط ولا تفريط فقال: (ينبغي على كل أحد أن يتناول من الدنيا على قدر مرتبته على حسب منزلته التي قسمت له فلا يطلب ما ليس له ولا يقصر عما جعل له ، ويدخل تحت الشريعة الحقة التي يلحقها في أيامه ويلزم وظائف الدين ، ويتخلق بالأخلاق الجميلة ويسير بالسير الفاضلة)[٢]

تعقيب

من خلال ما سبق نستطيع أن نقول إن ابن مسكويه لم يجعل السعادة الجسدية مرادة لذاتها وإنما لما يترتب عليها من السعادة الأخروية وهو مبدأ إسلامي حاول ابن مسكويه أن يتحدث عنه من الناحية الأخلاقية ، حيث إنه يربط بين المقدمات والنتائج وبين المبادئ والغايات في عملية مطردة ، إذ لا قيمة للفعل الإنساني من حيث الدراسة إن لم تظهر النتائج

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بفتح الباري كتاب الصوم باب ٥١ ما اقسم على أخيه أن يفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان وفق له جـ٤ ص ٧٢٦-٧٢٧ حديث رقم ١٩٦٨

(٢) الفوز الأصغر - ابن مسكويه ص٥٨

(٦٦)

المترتبة عليه ـ بل ما قيمة الأخلاق النظرية والعملية إذا لم تكن واضحة في الواقع المعاش.

إن ابن مسكويه أراد أن يخرج الفعل الإنساني من مجرد الدراسات النظرية إلى مجال التطبيق العملي لأنه المحك الرئيسي الذي تبدو فيه نتائج القضايا معلنة عن نفسها في حقيقة لا لبس فيها ولا التواء.

(٦٧)

الخـاتمـة

بعد هذه الجولة الماتعة التي استطعنا من خلالها التعرف على فكر المفكر الإسلامي الأخلاقيْ ابن مسكويه حول الفعل الإنساني نستطيع أن نلخص أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث .

١- خصوبة الفكر الإسلامي في شتى جوانبه واستيعابه لكافة الأراء المطروحة ، وتقديم نتائج جديدة تواكب روح العصر الذي وجدت فيه بجانب عمق المفكرين المسلمين وقدراتهم العقلية في التعامل مع كافة القضايا الإنسانية وصياغتها بما يتناسب مع المعالجة الإسلامية على قدر كبير.

٢- إن مسألة الفعل الإنساني من المسائل الصعبة الشائكة فلا عجب إذا قلت إنها مشكلة المشكلات فما زال من الناس مفكرين وساستهم يناقشون حرية الإنسان فكراً وسلوكاً وعقيدة وما يتفرع عن ذلك من مسائل.

٣- إن مسألة الفعل الإنساني وليدة نظرات متواصلة في النصوص الدينية سواء كان ذلك من جانب المتمكنين من العلوم الدينية أم كان من جانب بعض السطحيين.

٤- إن مفكري الإسلام من الأخلاقيين لم يقفوا من العقل الإنساني موقفاً سلبياً وإنما حاولوا المشاركة فيها مع الرغبة الصادقة لتقديم حلول لها وكان ابن مسكويه ممن نظر إلى هذه المسألة من مرآة انعكست فيها صور النفس الإنسانية وبخاصة من جانبها الإيجابي مرة والسلبي مرة أخرى مع ملاحظة ما يترتب على أي منهما.

(٦٨)

د- قرر ابن مسكويه حرية إرادة الإنسان وأنه بما منح من هذه الحرية والقدرة على الفعل مسؤول عن أفعاله.

٦-إن الفعل الإنساني عند ابن مسكويه خرج من دائرة الدرسات النظرية إلى مجال التطبيق العملي فترتب عليه أمور السعادة أو الشقاوة.

هذا ما وفقني الله إليه وأمكنني الوقوف عليه كتلخيص للنتائج التي انتهت إليها الدراسة في هذا البحث المتواضع .

والله أسأل التوفيق والسداد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(٦٩)

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها د/ عبد العزيز عزت مطبعة مصطفى البابى الحلبى

٣- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد بالجن –مكتبة الخانجي

٤- أخبار العلماء بأخبار الحكماء- جمال الدين القفطى مكتبة السعادة

٥- الأخلاق - أحمد أمين ط٢

٦- الأخلاق بين الفلسفة والإسلام د/ عبد المقصود عبد الغني – مكتبة الزهراء

٧- أدب الدنيا والدين – الماوردى - دار الريان ط ١

٨- أعلام الفكر اللإنسانى د/إبراهيم مدكور – الهيئة المصرية للكتاب

٩- أفلاطون- عبد الرحمن بدوي - مكتبة النهضة المصرية

١٠- الروح- ابن القيم - مكتبة المتنبي

١١- تاريخ الآداب العربية – جورجى زيدان

١٢- تاريخ الفلاسفة - محمد على مصطفى وأحمد عبده خير الله ط الأولى

١٣- تاريخ حكماء الإسلام – البيهقى المجمع العلمى بدمشق

١٤- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه - مكتبة الحياة بيروت

١٥- حصاد الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي - مطبعة صبحي بالزقازيق

١٦- دستور الأخلاق في القرآن - د/ محمد عبدالله دراز - مؤسسة الرسالة بيروت

١٧- روضات الجنات – محمد باقرموسى - مطبعة طهران

١٨- روضة القاصد وجنة المقاصد – موفق الدين عبدالله بن أحمد المقدس

(٧٠)

نقلا عن الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام د/ محمد السيد الجليند مكتبة نهضة الشرق ط٢

١٩- سنن أبى داوود – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد دار الحديث

٢٠- سنن الترمزي- للإمام الترمزى

٢١- صحيح البخاري – الإمام البخارى

٢٢- صحيح مسلم بشرح النووي - الإمام مسلم - المطبعة المصرية

٢٣- الفعل الإنسانى بين المتكلمين والأخلاقيين والفلاسفة د/ سميرة عبد الرحمن عبده رسالة ماجستير بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

٢٤- فلسفة الأخلاق في الإسلام د/ محمد يوسف موسى

٢٥- الفوز الأصغر – ابن مسكويه – مطبعة السعادة

٢٦- مدخل إلى علم الأخلاق د/ فوقية حسين محمود - مكتبة زريق

٢٧- مسند الإمام أحمد - المكتب الإسلامى للطباعة والنشر

٢٨- مسند الدرامي – الدرامى - دار إحياء السنة

٢٩- معجم الأدباء – ياقوت الحموي - سلسلة الموسوعات العربية دار المأمون

٣٠- المعجم الكبير – الطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي

٣١- المنهج الأخلاقي بين الإمام الغزالي وابن مسكويه – د/أحمد بخيت ٣٣- عبدربه رسالة ماجستير- كلية الدراسات الإسلامية والعربية

٣٢- نزهة الأرواح - للشهرو

٣٣- النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية – محمد منير الدمشقي بهامش الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية - عبد الرووف المناوي دار المعرفة – بيروت

الفهارس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الفصل الاول	
الإنسان في فكر ابن مسكويه	٥
المبحث الأول	
التعريف بابن مسكويه	٥
مولده وحياته	٦
أثار ه العلمية	١١
وفاته	١٣
المبحث الثاني	
الإنسان عند ابن مسكويه	١٤
المبحث الثالث	
قوى النفس عند ابن مسكويه	١٧
ماهية الإنسان عند ابن مسكويه	١٨
الفضائل والرذائل التي تنشأ من قوى النفس	٢٥
أ- القوة العاقلة	٢٦
ما ينشأ من صلاح القوة العاقلة أو فسادها	٢٨
ب- القوة الغضبيه	٣٠
ما يترتب عن فساد القوة الغضبية	٣٧
ما يترتب علي صلاح القوة الغضبية	٤١
جـ القوة الشهوانية	٤٤
الفضال التي تندرج تحت العفة	٤٥
الفصل الثاني	
الفعل الإنساني عند ابن مسكويه	٤٧
المبحث الأول	
تعريف الفعل الإنساني عند الأخلاقين	٤٧
تعريف الفعل الإنساني عند ابن مسكويه	٤٩
المبحث الثاني	
أنواع الفعل الإنساني	٥١

الفعل الإنساني الإرادي الخير	٥٣
الفعل الإنساني الإرادي الشرى	٥٩
أقسام الفعل الإرادي الشري	٦١
المبحث الثالث	
السعادة وعلاقتها بالفعل الإنسانى	٦٣
السعادة الأخروية	٦٣
السعادة الدنيوية	٦٥
الخاتمة	٦٧
المصادر	٦٩
الفهارس	